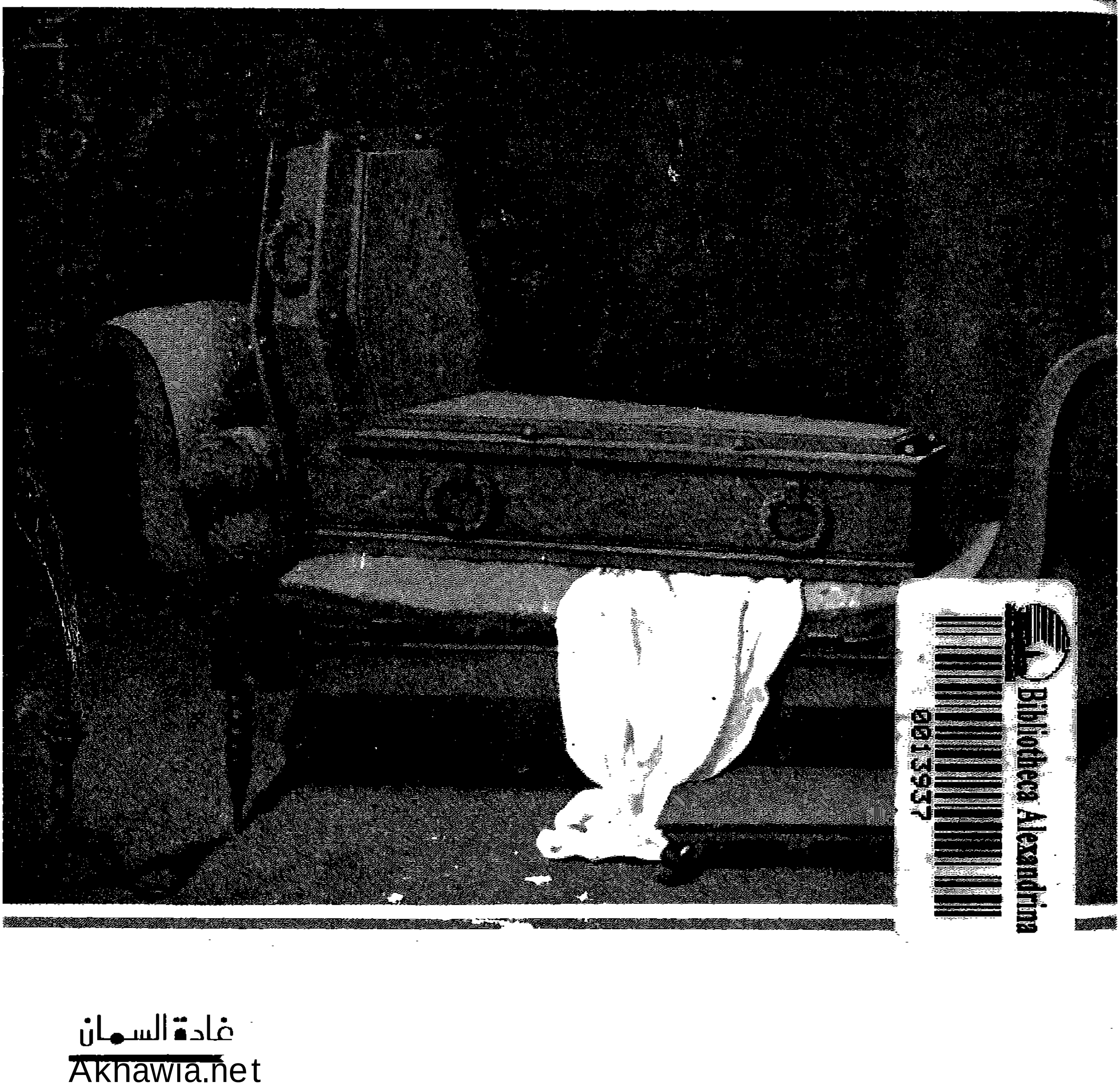
غـادة السـمّان

كوابيس بيروت



الإهداء

اهدي هذه الروايـــة ،
الى عمال المطبعة
الذين يصفون في هذه اللحظة حروفها
رغم زوبعة الصواريخ والقنابل
وهم يعرفون
ان الكتاب لن يحمل اسماءهم ...

اليهـــم ،
هم الكادحون المجهولون دونما ضوضاء ،
كسواهم من الأبطال الحقيقيين
الذين يعيشون ويموتون بصمت ،
ويصنعون تاريخنا
بصمود الانبياء ...

اليهـــم ،
هم الذين يكتبون الكتب كلها
دون ان تحمل تواقيعهم
إلى اصابعهم الشموع التي اوقدوها
من أجل ان يطلع الفجر
اهدي هذه السطور

غاده ٢ / ٩ / ٧٦

كابوس ١

حينما طلع ضوء الفجر ، كان كل منا يتأمل الآخر بدهشة : كيف بقينا أحياء ؟ كيف نجونا من تلك الليلة ...

فقد قضينا ليلة كانت القذائف والمتفجرات والصواريخ تركض فيها حول بيتنا كأنْ عوامل الطبيعة قد أصيبت بالجنون ... وكانت الانفجارات كثيفة كما في فيلم حربي سيء لكثرة مبالغاته ...

لم نكن قد صحونا جيداً من « عدم نومنا » حين اتخذنا قراراً سريعاً : إخراج الأطفال والعجائز من البيت وخلال عشر دقائق من الركض الهستيري بين غرف البيت – لجمع حوائج سيتبين لنا حتماً فيما بعد أنها غير ضرورية – ، كانت (القافلة) تهبط سلم البيت إلى الحديقة ومنها إلى سيارتي العتيقة ... وكان زجاجها الأمامي مثقوباً برصاصة عند موضع رأس السائق اي عند موضع رأسي والزجاج الخلفي محطماً ومتماسكاً في مكانه . تحسست رأسي وفرحت حين وجدته في مكانه دون اي ثقب اضافي . منظر الرصاص في الزجاج زاد من جنوننا لتهريب الصغار جداً والكبار جداً ، كأن لأصوات المتفجرات مفعول غامض كالمخدرات ... كأنها تطلق في الأعماق طاقة سرية مختزنة وتلجم في الوقت ذاته صوت المنطق اليومي والعقل العادي المتداول ...

يبدو أننا أغلقنا أبواب السيارة علينا بعنف ، فقد تساقط الزجاج المحطم الذي كان متماسكاً رغم شروخه ، وسقط فوقنا قطعاً بيضاء صغيرة كالثلج الشرير ...

كان خوفي الوحيد من ان تقرر سيارتي العتيقة ممارسة احدى ألاعيبها كأن تعتصم بأرض الشارع وتضرب اليوم عن العمل . كان قلبي يضرب كطبل افريقي مجنون وأنا

أدير مفتاح (الكونتاكت) .. تحركت السيارة . كالمنومة معاً بسياً كنت اقودها ، وفي ذهني خاطر واحد : التخلص من حمولتها البشرية — الأقل صبراً على الرعب — والعودة إلى البيت .

أنزلتهم أمام بيت بعض الأقارب ، وعدت في الدرب نفسها مثل دمية ربط (زمبركها) وهي تؤدي دورها على الخط المرسوم لسيرها دونما توقف (وحتى لو اصطدمت بطرف سجادة أو بساق الكرسي ، فانها ستظل تتابع حركتها الآلية) ... هذا ما حدث لي حين مررت بحواجز المسلحين الجدد الكثر ... لم اتوقف ولم اسرع ، ولم اشعر بأنني رأيتهم ، ولم تبد على وجوههم غير الدهشة ... كان من الواضح ان السيارة مصابة بزخات من الرصاص وخصوصاً عند موضع رأسي ، وكان المدهش انني ما زلت أحيا واقودها دون اي تعبير على وجهي ، وربما ظنوا انني مت حين أُطلقت النار على السيارة ، وها أنا اقودها في طريقي الى الآخرة ... ووحدها الدرب إلى الآخرة سالكة وآمنة وبلا حواجز ... وهكذا لم يستوقفني أحد .

* * *

كابوس ٢

حين غادرت سيارتي ذلك الصباح ، ودخلت إلى البيت سالمة — حتى اشعار آخر — لم أكن أدري أنها المرة الأخيرة التي ساغادر فيها بيتي إلى ما بعد أيام طويلة ... وأنني منذ اللحظة التي أغلقت الباب خلفي ، اغلقته أيضاً بيني وبين الحياة والأمن ... وصرت سجينة كابوس سيطول ويطول ..

وانني عدت وأخي إلى البيت لنلعب دور السجناء ... ولو علمنا لتزودنا بشيء من الطعام في درب العودة ... ولو علمنا ربما لما عدنا ... ولو .. ولو ... وزرعنا « لو » في حقول الندم ، فنبتت كلمة يا « ليت » ! ...

* * *

كابوس ٣

لم نكن قد سمعنا الراديو بعد . فقط حينما عدت : تذكرت أنني للمرة الأولى منذ شهر غادرت البيت دون ان استمع إلى ارشادات المذيع شريف ، أو أغسل وجهي على الأقل ...

وحين انصت اليه، كان الأوان قد فات . كان المسلحون يحتلون فندق « هوليداي إن » المواجه لبيتنا الصغير العتيق والذي يطل فوق أعلى طوابقنا (الثالث) . كما يشرف جبل من الاسمنت والحديد فوق كوخ لفلاح مسالم في قعر الوادي ...

بعدها فقط استيقظت وأدركت انني كأعزل محكوم بالاقامة الجبرية وسط ساحة معركة ! ... فاتصلت بالبقال لاطلب مؤونة من الطعام . لا جواب . تلفنت لدكاكين الحي كلها . لا أحد يرد . تلفنت للجيران ، فرد ابنهم أمين مدهوشاً . أين تعيشين ؟ الا تعرفين ما يدور حولك ؟ ...

* * *

كابوس ٤

اين اعيش ؟

ردني سؤاله إلى واقع مروع . اعيش في ساحة حرب ولا أملك اي سلاح ولا اتقن استعمال أي شيء غير هذا النحيل الراكض على الورق بين أصابعي تاركاً سطوره المرتجفة كآثار دماء جريح يزحف فوق حقل مزروع بالقطن الأبيض ...

اين اعيش ؟ ...

يبدو انني اسكن بيتاً من الشعر (بكسر الشين) . وسادتي محشوة بالأساطير ، وغطائي مجلدات فلسفية . وكل ثوراتي وقتلاي تحدث في حقول الأبجدية وقذائف اللغة ...

أين تعيشين ؟

ودوى انفجار ... وشعرت بوخزة : لماذا لم اتعلم المقاتلة بالسلاح — لا بالقلم وحده — من أجل ما اؤمن به ... ؟ كم هو خافت صوت صرير قلمي على الورق حين يدوي صوت انفجار ما ... وقررت : ان الوقت ليس وقتاً لتقريع الذات على عادة الأدباء الذين يقعون في أزمة ضمير كلما شب قتال ويشعرون بلا جدوى القلم ... المهم ان أعيش ، فالحياة هي وحدها الضمان لتصليح اي خطأ إذا اقتنعت فيما بعد أنني على خطأ .. والوقت ليس وقت مراجعة ذاتية او حوارات فلسفية . كانت الانفجارات تتلاحق ، وقررت ان أواجه الواقع الملموس حالياً وأن أحدد موقعي من ساحة الحرب بطريقة (عسكرية) ، واحصائية ! ...

* * *

كابوس ٥

وجلست اكتب على ورقة : ١ – لا سلاح في البيت على الاطلاق . حتّى سكا كين المطبخ ليست حادة . اذن لا مجال للبحث في القتال إلا على طريقة غاندي ! .. (ملاحظة : هذه ليست بطاقة دعوة لاغتيالي !) ..

٢ – ليس في البيت سوى طفاية حريق واحدة صغيرة . بحثت عنها ووجدتها في المكتبة . لاحظت انها أصغر مما كنت أقدر ، وانها لا تصلح لأ كثر من اطفاء سيجارة ! ..

٣ – مخزون الطعام يكفي لخمسة أيام . هذا إذا أ كلنا على طريقة النحل ! ...

٤ – الماء الخاص بالشرب مقطوع ، أي أن عليّ غلي الماء الملوث قبل شربه ... شرط عدم انقطاع الغاز لاشعال النار ! ...

٥ – في البيت شمعتان شاءت الصدف أن تكون إحداهما سوداء . أي في حال انقطاع الكهرباء سيكون علي أن استعين بضوء الصواريخ والقذائف ! ..

٦ – أنا خائفة .

٧ – أنا خائفة جداً .

ومزقت الورقة إلى قطع صغيرة صغيرة ، ثم عدت أتسلى عن صوت الرصاص بمحاولة اعادتها كما كانت قبل أن أمزقها .. حرفاً لصق الآخر .. كانت محاولة صعبة جداً ، كمحاولة احياء علاقة أشبعناها تمزيقاً ... كمحاولة اعادة الفرح إلى قلب في (غشاء من نبال) ...

ضحكت من نفسي . ها أنا أسكن ساحة حرب وأدافع عن جسدي بتلاوة أشعار المتنبي كما لو كان تعويذتي ! ...

* * *

كابوس ٦

هدأ الرصاص قليلاً ...

اقتربت من النافذة ... كذلك فعلت الام التي تقطن في الدور الثالث من البناء المقابل لبيتي . وكان البقال العجوز يضع لها بعض أرغفة الخبز في سلة مربوطة بحبل وقد وقفت هي خلف خشب النافذة وأدلت اليه بالحبل دون أن تخرج حتى يدها .. أما هو فقد احتمى بمدخل البناء .

كان الهدوء شاملاً ، وتخيلت ان المقاتلين يغسلون وجوههم ويبردون أسلحتهم ... وقررت أن انادي البقال — المغامر وأمارس الشيء ذاته ...

وبدأت السيدة ترفع السلة المربوطة بالحبل ببطء شديد . وقررت : لا بد أن يديها ترتعدان الآن ! ... ولكن السلة كانت ترتفع باستمرار وكان حبلها دقيقاً حتى بدت مثل سلة تصعد في الفضاء نحو الخائفين ، حاملة رغيف السلام ... لاحظت أن عيون بقية الجيران المختبئين خلف النوافذ كانت أيضاً تتابع طيران سلة الخبز في الفضاء ، وأحسست ان قلوبنا جميعاً مثل قلب واحد يصلي من أجلها .. كأن السلة صارت طفلاً .. طفل المحبة والأمان والتواصل مع عالم البسطاء ..

وظلت السلة تعلو حتى وصلت إلى حدود الطابق الثاني ، والصمت المتوتر ما زال يسود ...

وفجأة انطلقت رصاصة .

لا أدري هل سمعنا صوتها أولاً أم شاهدنا السلة تهوي في الفراغ مثل رجل سقط من الشرفة .

وفهمنا جميعاً بومضة برق مدلول ما حدث : هنالك قناص ما أطلق رصاصة على الحبل الرفيع .

لقد عرض مهارته أمام أهل الحي جميعاً . لقد قال لنا جميعاً : انني قادر على إصابة أي هدف مهما كان دقيقاً رنحيلاً . قلوبكم كلها تحت مرماي . شرايينكم كلها أستطيع ان اثقبها شرياناً شرياناً . أستطيع أن أصوب داخل بؤبؤ عيونكم دون خطأ . استطيع أن أصوب رصاصي إلى أي جزء يحلو لي من أجسادكم .

وحين هوت السلة ، شعرت بأن الحي كله تحول إلى قلب واحد يتنهد بغصة . وأدركنا أننا جميعاً سجناء ذلك الغول الغامض المختبىء في مكان ما والذي يتحكم بدورتنا الدموية والعقلية والنفسية لمجرد أنه يملك بندقية ذات منظار تدرب عليها بعض الوقت .. ولتذهب إلى الجحيم كل الساعات التي قضيناها في الجامعات والمختبرات لنتعلم ! ..

وحين سقطت السلة ، سقطت آمالنا معها وتكومت على الرصيف جثة تحتضر . حين سقطت السلة ، حزنا كما لو ان طفلاً سقط من على دولاب مدينة الملاهي وانطفأت الأضواء والضحكات كلها دفعة واحدة ...

كان واضحاً أننا فهمنا جميعاً رسالة القناص . ومن ساعتها أغلق خشب نوافذ الحي كلها باحكام .. ولم تفتح ! ...

وداعاً أيتها الشمس ! .

* * *

كابوس ٧

الرصاصة التي انطلقت من مكان ما اتقطع حبل سلة الخبز كانت تعني ببساطة أننا سجناء تماماً . ان الهرب من ساحة الحرب أضحى مستحيلاً ، والحصول حتى على رغيف خبز أضحى طموحاً مبالغاً فيه ! ..

خطوة واحدة إلى الشارع ويصيبنا ما أصاب أرغفة الخبز ...

ووجدتني أفكر بجسدي باعتباره مادة قابلة للخرق بالرصاص والكسر والحرق والتمزيق ، ولا أدري لماذا تذكرت الاعلانات عن الساعات التي هي (ضد الماء والكسر) ، وشعرت بالغيرة منها ... وأسفت لان الجسد البشري هش ، والحياة لا يمكن أن تتكرر ... إنها الخسارة الوحيدة التي يستحيل تعويضها ! تذكرت قولاً « الشيخوخة هي الجنازة الوحيدة التي يمشي فيها الفقيد على قدميه » وشعرت بشهية للشيخوخة ، وتخيلت نفسي واصدقائي وقد ابيض شعرنا وتجاوزنا السبعين ونحن نروي ذكريات هذه الأيام المرة ... كم هو مفجع أن تصير الشيخوخة طموحاً ! ...

أخي وأنا ، لم نتبادل أي حوار ... كأن صوت الرصاص يلغي اللغة ... كأنه يخلق جداراً عازلاً ، أو أنه يزيد من وعي الانسان بفرديته وعزلته حيث يسقط كل في بئره الخاصة ...

* * *

كابوس ٨

سقطت في بئري إلى الداخل حيث الكوابيس .. انفتح الباب ..

دخل صديقي بقامته المشدودة كسهم افريقي . أردت أن أقول له أنني افتقده ولكنني لم أفتح فمي ولم يصدر عني أي صوت ومع ذلك فَهِمَ ما أود قوله ورد علي دون أن يقول شيئاً : وأنا افتقدك وأحبك ...

كان جسده مغطى بالدم ، وفي صدره العاري بعض قطع الزجاج المكسر .. وكان

جسدي أيضاً قد بدأ ينزف من مساماته كلها . لا أدري إذا كان يؤلمني أم لا . كان مجيئه فرحة لا تصدق ... كنت قد ناديته : تعال أينما كنت .. تعال كيفما كنت ...

وها هو قد جاء . ضممته إلى صدري فانغرست قطع الزجاج المكسر في صدري أيضاً وشعرت أننا التحمنا وتواصلنا ...

ثم دوى انفجار ... وتمزق الكابوس ... لقد قذف بي الانفجار إلى الأرض ، وكنت خائفة ووحيدة ، وأنزف من الداخل فقط ! ...

* * *

كابوس ٩

قررت أن احارب الكوابيس بالعمل .

لكن الغروب كان قد بدأ يرمي بعباءته الرمادية فوق جراح الحي .

تلصصت من النافذة . السلة ما تزال في مكانها على الأرض كجثة بلا حراك ... وقطعة البحر المتبقية لي بعد بناء فندق « الهوليدي‌إن » لم تكن كالعادة أفقاً من الحمرة الجميلة ... كان هنالك دخان يعلو عند الأفق ويغطيه ..

* * *

كابوس ١٠

هدأ الرصاص قليلاً ...

لم يبق إلا الليل والصمت ... صمت غامض متوتر .. خيل إلي أنني اسمع اصواتاً خافتة .. أصوات استغاثة .. ظننتني واهمة ، ثم تذكرت دكان بائع الحيوانات الأليفة المجاور لنا ... لعل صاحبها يعمل قناصاً مثلاً ، وهو مشغول عن رعايتها واطعامها بصنع الدمار (ام تراه لا يستطيع الوصول اليها ؟) ...

وتخيلتها داخل اقفاصها ... تشم رائحة البارود والنار . وتلتقط كهارب الخطر ... لكنها عاجزة عن الهرب ، وعاجزة عن الدفاع عن نفسها ... اين صاحبها الذي اعتاش من الاتجار بها وببيعها وشرائها ؟ ..

ألم يسجنها باسم تأمين العيش (الكريم) لها ؟ ... ولماذا يغيب عنها مع غياب الزبائن والصفقات وقدوم الخطر ؟ ... اين صاحب دكان الحيوانات الاليفة ؟ تراه لملم ثروته التي جمعها من بيعها وهرب بها إلى أوروبا مع من هرب ؟

(اتذكره . في وجهه قسوة لا يخفيها تهذيبه البروتوكولي مع الزبائن . مرة رافقت زميلة إلى دكانه . كانت ترغب في شراء قط سيامي تعرف مواصفاته جيداً : ازرق العينين . بني الأذنين . أبيض الجسد . بني الذيل . وعبثاً حاولت اقناعها بأنها بحاجة إلى إنجاب طفل بدلاً من الهرب إلى تبني قط . كانت ما تزال تعشق صديقها المتزوج الذي لن يطلّق أم اولاده ولن يتزوجها . كان يغدق عليها النقود كتعويض (عطل وضرر) عن شبابها المهدور ، وكانت فيما يبدو راضية بالصفقة مع حبيبها الثري ، وقد قررت تتويج قصة الحب بتبني قط ، ما دام انجابه غير ممكن ! ..

دخلنا إلى الدكان ... الجزء الخاص بالغرباء — والقادمين من الخارج لاتمام صفقاتهم— نظيف وجميل ومرتب كأنك في دكان سويسري، وفيه كل ملاهي عصرنا الاستهلاكي كما في شارع الحمراء وطريق المطار وصالة الترانزيت والروشة والكازينو مثلاً ... وقفت صديقتي في هذا القسم النظيف العصري المفروش (بالستينلس ستيل) و (الموكيت) اما انا ، فتجاوزت أسوار الدكان (السياحية) إلى الداخل ... وكان صوت صديقتي يتناهى إلي وهي تعرض طلبها : اريد قطاً سيامياً — ابن عيلة — أزرق العينين أسود الشاربين بني الذنب أبيض الجسد .. وكان صاحب الدكان يرد : كل طلباتك موجودة ... والاسعار متهاودة .. سأحضر لك ثلاثة قطط تختارين منها بنفسك .. قالت : اترك اختيار القطط لذوقك ... ورن الهاتف .. وانشغل في حوار — صفقة حول كلاب للصيد وكنت اتسلل إلى ما وراء السور الديكور الذي يحجب حقيقة وضع بضاعته ..

خلف السور ، كانت الاقفاص المختلفة الاحجام والاشكال مرصوصة ومتلاصقة كما في مقابر الفقراء ... الشمس لا تطالها ولا الرياح ولا الندى ولا السماء الزرقاء .. وداخل الاقفاص كانت هناك مجموعة كائنات حية تشبه البشر في تنوعها : كلاب مختلفة الأنواع ... بودل وكانيش وكلاب صيد ... قطط رمادية وبلدية وشامية ... أرانب بيضاء حمر العيون ... أرانب رمادية وسوداء .. فئران بيض . فئران ملونة ... أسماك ملونة صغيرة تسبح في « الأكواريوم » المضيء كأنها فراشات مائية ... عصافير مكسورة الخاطر والجناح ... بلبل وحسون وببغاء وغيرها ... حيوانات من مختلف الألوان والأشكال والأمزجة يجمعها القفص ، والسجن ، والبؤس ... كانت متعبة ، فلا القطط تموء تماماً ولا الكلاب تعوي جيداً ولا العصافير تغني .. وتساءلت : تراه يضع دواء

مخدراً في أوعية الماء الخاصة بها ؟ ام انه لا يطعمها بما فيه الكفاية لتكون قوية فتثور وتضرب رأسها بالقفص وتعض يد السجان والزبون ، البائع والشاري ؟ ...

كانت عيناي قد الفتا الظلمة النسبية بالداخل ، ورغم موسيقى الجيرك العالية التي حرص صاحب الدكان على وضعها في (الجناح السياحي) من دكانه ، فقد استطعت ان اسمع الصوت الموحد الحزين لشعب الحيوانات الأليفة في الأقفاص ... كان يشبه صوتاً قادماً من مظاهرة للمرضى والجرحى والمتعبين ، لكنه صوت تهديدي شرس الوعيد ... كان من الواضح ان البائع يطعمها بما فيه الكفاية لتبقى على قيد الحياة فقط ، كي يظل قادراً على بيعها ، يسقيها مياهاً نصف ملوثة ، ويخرجها إلى النور حينما تكاد تحتضر ، وهمه الوحيد ابقاؤها حية كي لا تموت ويخسر تجارته .. ولكن ، أية حياة ؟ هذا موضوع آخر لا يهمه . علاقتها مع الشمس والغابات والبحار والليل والقمر وأفراح المواسم والحرية ، كل هذه أمور لا تعنيه مطلقاً ..

وفجأة وجدته خلفي . جاء ليحمل لصديقتي الحيوان المطلوب . فتح أحد الأقفاص . أخرج منها قطاً حشر حشراً في مجال حيوي ضيق مع سبعة قطط أخرى من نوعه . لاحظت ان بعضها جريح ، ولعلها في غمرة ضيقها بسجنها وبؤسها وسوء وضعها ، تقتتل فيما بينها ، ويعضّ بعضها بعضاً ، وصاحب الدكان يرحب دونما شك بهذه الظاهرة حيث يعض البؤساء كل منهم صاحبه ، بدلاً من ان يهجموا جميعاً عليه هو مرة واحدة .. هو العدو الحقيقي ...

أخرج القط من القفص وأغلقه بعناية . التقت نظرتنا . كان من الواضح انه فهم انني أفهم ما يدور وان ذلك لم يعجبه أبداً . قال بصلف : ممنوع دخول الزبائن إلى المخزن !

قلت : لست زبونة . انا من (الفريق الآخر) ..

وتمت الصفقة بين رفيقتي المدحورة عاطفياً المتلهية بهمومها الشخصية عن حقيقة ما يدور .. ودفعت ثمن القط ، وخرجت بعد ان زودها البائع باسم طبيب بيطري من المفروض ان تذهب اليه فوراً لتلقيح القط وقص اظافره ! ... البائع اولاً . ثم البيطري . وربما بعده الصيدلي . وبعده لا ادري ماذا من حلقة مافيا المنتفعين.. وحين خرجت صديقتي بالقط لاحظت ان (راعي) الدكان تنهد الصعداء . كان سعيداً بخلاصه من فم

اضافي يجب اطعامه . لم اشعر بأية عاطفة تربط بين صاحب الدكان وشعبه من الحيوانات الاليفة .. انه يخرجها من اقفاصها ويعيدها اليها دون ان يرف له قلب ! .. وحتّى في السجون ، ثمة علاقة انسانية تنشأ بين السجان وسجينه (وكلاهما من طبقة مسحوقة واحدة) ، اما صاحب الدكان ، فلم ألحظ ان بينه وبين « رعيته » لمسة حنان واحدة ... لا جسر بينهما غير المصالح ...

وهو قادر على ترويضها جميعاً ، خانعها وشرسها ، بالتجويع والسجن والإذلال وشروط العيش الرديء بحيث.لا تقوم لها قائمة في وجه طغيانه ولامبالاته ...

وذهبنا إلى عيادة الطبيب البيطري وكانت فخمة ونظيفة وخاصة بطبقة القطط المرفهة .. ولا ادري لماذا تذكرت مشهد امرأة كانت تضع طفلها تحت خيمة في عكار وقد تمسكت بغصن شجرة وهي تصرخ دون طبيب او معين او قطعة قطن واحدة ... كنت قد ذهبت يومها لكتابة تحقيق صحفي عن مجاهل عكار ، وشاهدت يومها كيف يولد الاطفال ليتعمدوا بالتراب فوراً ... فقد وضعت طفلها الذي تلقته منها أرض الحقل وامتزج دمه بالأشواك ، ثم امسكت بحجر وقطعت به حبل الخلاص ، بينما وقفت انا مذهولة أمام وجهها المتجلد الصامد الشبيه تماماً بالصخرة التي كنت قد تحجرت قربها ! ..

ودخلنا بالقط إلى عيادة الطبيب . وبمساعدة الممرضة وصديقتي تم الامساك بالقط وقص أظافره ، وكان هو يصرخ بما تبقى له من قوة مناضلاً للابقاء على سلاحه الطبيعي بينما المجهول يحيط به من كل جانب ...

وبعد عملية قص الأظافر ، جاء الطبيب بابرة غرسها في فخذ القط ، وتذكرت أنا بهلع أن طفل الفلاحة العكارية قد يكون قد مات الآن لأنه لم يجد من يلقحه ... وبعد ذلك قرر الطبيب ان من الضروري إعطاء القطة جرعات محددة من الفاليوم كي لا تبحث عن قط تمارس معه ما تمارس ، وتحمل ، لانها ما زالت صغيرة السن ! .. والحمل خطر على صحتها العزيزة !

وهنا جنت رفيقتي . قطة لا قط ؟ كانت تريد قطاً ذكراً . وصاحب الدكان باعها الاخ القط على أنه ذكر لا انثى . تلقت النبأ بحزن شديد كأمرأة انجبت طفلتها السابعة وقد حلف زوجها بالطلاق في حال عدم إنجابها لِذَكَر ! ...

ثم قبلت ما هو « مكتوب عليها » وبدأت تشتم البائع الغشاش بينما البيطري يعطي

جرعات الفاليوم للقطة ، ثم بدأت تشتم الطبيب البيطري حين طالبتها الممرضة بالفاتورة.)

* * *

كابوس ١١

لا ... لست واهمة .. الصوت الذي اسمعه ، الشبيه باستغاثة جماعية قادم من دكان بائع الحيوانات الأليفة المجاور ...

انها لم تجع بعد ... لكنها خائفة ككل أهل هذا الحي السجناء . كل أسرة في قفصها .. كل أسرة لا ترى اين هو المسؤول الحقيقي عنها .. وماذا يفعل .. هل يرى الحرائق ؟ هل يسمع صوتها ؟ هل وهل وهل ؟ ... البيوت أقفاص ... ونحن رعيته البسطاء من غير المسلحين ... هل كانت غلطة أننا صدقنا ان هنالك فرقاً بين الغابة والدكان ؟ ...

وشعرت بجدران قفصي تضيق .. تضيق ... وبدأت أضرب رأسي بقضبانها ...

ودوى انفجار هائل ... وانكسر الصمت المتوتر الرهيب ، بسلسلة رهيبة من الانفجارات ...

وقررت : في المرة القادمة لن أسمح لأحد بقص أظافري . لن اصدق مزاعم صاحب الدكان . لن أكون عزلاء ! ...

* * *

كابوس ١٢

لم يتوقف شلال النار ..

لاحظت أنني جالسة على الأرض ، مكومة تحت مستوى النافذة . قررت أنني لا أعرف من أين ستأتي الرصاصة التي ستستقر في صدري ، وبالتالي لماذا لا أتمدد في فراشي وأتعلم النوم رغم الرصاص ؟ ..

لقد عشت في ظروف لا حدّ لقسوتها ... واضطررت إلى النوم في أمكنة مسكونة بالبرد والغربة والأشباح الرمادية ، وعلمت نفسي التكيف مع ما حولي من عذاب ... بل انني روضت نفسي ذات مرة على النوم ، وقد سلطت على وجهي مصباحاً كهربائياً ساطعاً .

اليوم علي ان أتعلم النوم في ساحة حرب ... استجمعت إرادتي ، وكل ما أعرفه من

اليوغا ، وبدأت أفكك أعضاء جسدي عني عضواً بعد الآخر كما لو كنت دمية عرض لواجهات المخازن . أمرت ساقي اليمنى بالنوم . ثم ساقي اليسرى . بدأت آمر أعضاء جسدي واحداً بعد الآخر بالسفر عن الزمان والمكان إلى براري النوم ... تأكدت ان التجربة ممكنة التحقيق ، لكنها تحتاج إلى كثير من المران ... فقد دوى انفجار شديد ، وانفرطت من يد دماغي جديلة الأعصاب التي كنت ألملمها خيطاً بعد الآخر واسيطر بها على جسدي عضواً بعد الآخر ...

وبعد فشلي هذا اصبت بنكسة . بدأت اسمع الانفجارات أعلى مما هي في حقيقتها (او هكذا خيل إلي) ،

ثم حدث شيء ، غريب .. دخل جسم غريب إلى الغرفة ، كائن ساخن الحيوية ، مروع النشاط ، سمعت صوته يضرب خشب الباب ثم المقعد فالسرير فالباب ... في البداية لم أفهم ما حدث بالضبط ، كانت رائحة حريق خاصة تفوح من الغرفة ... كانت رصاصة ما او شظية قد اخترقت طرف باب الغرفة وفجرت ساق الكرسي ثم اصطدمت بالسرير وارتدت عنه إلى الباب الآخر فخرقته ... ووقفت احدق مذهولة ... كانت شظايا الخشب تملأ أرض الغرفة والسرير وشعري وتغطي المجلات المتناثرة على الأرض .. وكنت أتأمل موضعها بهلع .. فقد حفرت الخشب تماماً على عمق ١٠ سنتمترات على الأقل ، أما الكرسي الواطىء الذي أصابته فقد تناثر بين شظاياه بعض قطع المسامير التي صهرت وانكسرت تماماً كما لو ان مطرقة جهنمية ضربتها ...

شيء آخر روعني ... كنت أظن الرصاص (وهذه أول مواجهة عملية بيننا) ينطلق في خط مستقيم ثم يصيب هدفه .. أما هذه الرصاصة (ام الشظية ؟) فقد تحركت في الغرفة كما لو كانت كرة بلياردو أو قطاً مذعوراً ... ركضت في الاتجاهات كلها هادمة نظرياتي (العسكرية) كلها عن السلامة في البقاء على مستوى الأرض او التمدد ، فالفظيع ان مستوى انفجار (الرصاصة أو الشظية) كان على مستوى خفيض جداً لا يزيد ارتفاعه اكثر من ٣٠ سم عن الأرض ... وذهلت . من اين دخلت الرصاصة إياها ؟ وكيف ؟ وحيرني الأمر حتى أنساني خوفي ، وخرجت إلى الغرفة المجاورة من حيث بدأت الشظية (نزهتها) وخيل إلي أنها ربما كانت قد انطلقت من داخل المنزل .. على الجدار المقابل لأول باب ضربته ، فوجئت بندبة وقد سقط بعض الكلس والتراب عن الجدار إلى

الأرض ... اذن من هنا مرت الرصاصة ... ولكن ، من اين دخلت والنوافذ كلها مغلقة بالخشب والزجاج غير مكسور .. وبدأت أحدق جيداً في النوافذ حين دوى انفجار ، فقررت وقف (تحقيقاتي العسكرية) ، واغلاق (ملف القضية) موقتاً والهرب إلى الطرف الآخر من البيت ...

هذه المرة كنت خائفة حقاً ... فقد وعيت للمرة الأولى ان الرصاص لا يمشي على الصراط المستقيم وانما قد يمشي في خط متعرج كجرذ يركض من جدار إلى آخر ...

ووعيت أيضاً أن الرصاص لا يمشي بالضرورة فوق مستوى النوافذ ، وان القضية أكثر تعقيداً بكثير ، من المعلومات السطحية التي كنت قد جمعتها من السينما البوليسية والروايات . وأدركت أنني أواجه عدواً أجهله تماماً ، وبهذا الشعور البائس تمددت باستسلام على اريكة في الصالون ...

* * *

كابوس ١٣

تمددت على الاريكة في الصالون ، وكان الظلام دامساً وجميع الأنوار مطفأة ... تعلقت نظراتي بشقوق النوافذ المحكمة الاغلاق المفتوحة الزجاج . كنت قد اغلقت خشبها وتركت النوافذ الزجاجية مفتوحة . هكذا قرأت في كتاب بوليسي انه من الأفضل في حال الانفجارات ترك زجاج الغرف مفتوحاً كي لا يحوله الضغط إلى سكاكين تتناثر في كل مكان وتنغرس في جسد الضحية . ارتعدت لهذا الخاطر . ظللت اتأمل شقوق النوافذ . (والقمريات) اي النوافذ الصغيرة المستديرة الملاصقة للسقف والتي لا خشب يغطيها وتوجد في أكثر البيوت الدمشقية والبيروتية القديمة . كان الغرض الأساسي منها إدخال مزيد من النور نهاراً إلى الغرف الشاهقة الجدران ، والسماح بدخول ضوء القمر إليها ليلاً ...

اما الآن ، فقد بدت لي (القمريات) المزينة بالزجاج الملون مثل اسلحة فتاكة ... مثل عشرات الخناجر التي لا أدري متى يطلقها الانفجار من عقالها ....

هكذا تمددت وحيدة في قلب الظلام ، وخلف القمريات كان المنظر مذهلاً .. فقد كانت الصواريخ والقنابل المنفجرة في الجو تضيء الليل كالبرق ، وتلتمع خلف القمريات مثل عاصفة برقية رعدية جهنمية لا تهدأ ... احسست بخوف بالغ ... ولكنني ،

رغم كل شيء ، لم اتمالك نفسي من الاعجاب بجمال المشهد بينما القمريات بزجاجها الملون تسطع فجأة وتنطفىء ثم تسطع بتسارع « بسيكاديليك » ساحر الألوان ...

وقررت انني مثل رجل يهوي إلى قاع شلالات نياجارا بينما هو ما يزال مسحوراً بجمال المشهد ... او مثل شخص يسقط من الطابق الخمسين ويعجب بزهور الشرفات التي يمر بها في دربه إلى الموت ..

كان كابوساً جمالياً سادياً عجيباً ... ومع جنون البرق ، جاءني حبيبي القتيل ، وكان ما يزال مغطى بالدم والجراح ... فاحتضنته وقبلته ولم أبال بأن جسده بارد ودماءه متخثرة .. وكنا نتقلب معاً على أصوات الرصاص التي استحالت شفرات معدنية باردة .. وصرخت به : ما زلت احبك ...

* * *

كابوس ١٤

شاهدت الرجل يخرج من قلب الظلام . شاهدت الرجل يضع على وجهه قناعاً اسود . شاهدت الرجل يطرق الباب الكبير . شاهدت الرجل يقابل الرجل (الكبير) . شاهدت الصفقة تتم . شاهدت الرجل يخرج حاملاً معه « مسحوق الجنون » . شاهدت الرجل يقبض الثمن . شاهدت الرجل يتسلق الجبل . شاهدت الرجل يرمي « بمسحوق الجنون » في النبع الذي تشرب منه بيروت . شاهدت مسحوق الجنون يمس النبع ، فتشتعل النار في الماء ، وتفور فقاعات من جمر ... شاهدت الرجل ينحني على النبع ويشرب ، فتستحيل أصابعه العشر مخالب حيوانية ، ويطول شعره ، وتسقط عنه ملابسه كالقشرة الجافة ، ويخرج منها جسده ، وقد تحول إلى جسد غوريلا غاضبة ، يمد القرد يده فيكسر غصناً أخضر ويحمله مهتاجاً راكضاً نحو المدينة ... والنار تشتعل من موطىء قدميه وقد شب في داخله بركان حيواني لا يقاوم ، ونهم إلى الدم .. الدم ...

ويتدفق « نبع الجنون » ليسقي أهل المدينة ... بعضهم يشرب ولا يدري ... واستيقظت ، وانا لا أدري ما إذا كنت قد نمت ام لا ... شربت ام لا ..

* * *

كابوس ١٥

انه الخريف .. وأنا سجينة كبقية سجناء دكان بائع الحيوانات الأليفة .. تلك الجبال

الخضر ، لن أخترقها كسهم محشو بالفرح ... تلك الدروب القروية الجبلية ، تلك الوديان ، تلك المراعي والسهول قد أموت قبل أن أراها ثانية ... هذا هو يومي الثاني وانا سجينة (**ربما كنت دوماً سجينة دون ان ألحظ ذلك ، تماماً كمخلوقات دكان بائع الحيوانات الأليفة ... وربما كنت أعي سجني دوماً واحاول كسر قضباني ، وما شوقي الدائم إلى الأفق والسماء إلا من بعض شوقي إلى الحرية الداخلية ... الحرية الحقيقية لا حرية التنقل فقط في سجن كبير جدرانه هي حدوده ، واسمه الوطن !) ..**

تذكرت صديقي ... كأن الرعد يستنبت صورته في أعماقي كالكمأة .. كنا — هو وأنا — من رعايا الخريف ... كنا نمتلك البحر والجبل بعد انحسار الناس عنهما ، وكنا نركض مع الأغنام ونزعق مثلها : ماع ... ماع ... ونضحك طرباً لهذه اللغة غير الملوثـــة ...

انها تمطر . وقد هدأ القصف ، كأن مقاتلي الأرض يقفون دقائق حداداً على فصل الخريف الذي يهمون باغتياله ، لحظة وصوله من السماء ..

* * *

كابوس ١٦

لم يطل السكون ... بدأت الطلقات المتقطعة بايقاعها الخفيف ايذاناً بدخول العزف الأكثر شراسة وعنفاً ..

مع الانفجار الكبير الأول لملمت نفسي من موضعي على الأريكة حيث قضيت الليلة السابقة ..

حاولت السيطرة على أعصابي لقضاء يوم عادي قدر الإمكان كي لا أصاب بالجنون ! .. كان ذلك مستحيلاً . كنت فيما مضى ابدأ يومي بمطالعة الصحف ، ولم أجدها طبعاً خلف الباب .. (لا يمكن لهم توزيعها على البيوت بالمصفحات مثلاً ! وحتى لو ارتدى باعة الصحف ثياباً واقية من الرصاص لما استطاعوا الوصول إلى بابي حيث مركز القتال) ...

ورغم معرفتي الأكيدة بأن القطط نفسها لا تجرؤ على التجول في شارعنا ، لكني تلفنت إلى دكاكين البقالة المجاورة ... وطبعاً لم يرد أحد ... اقتربت من النافذة وشققتها قليلاً ...

كان المشهد مروعاً ... كانت النوافذ كلها مغلقة ... كأن الحي فرغ تماماً من سكانه .. كأنهم تسللوا جميعاً هاربين تحت جنح الظلام ..

وحين يهدأ الرصاص ، ويكف المطر عن السعال ، يسود سكون متوتر مخيف ... سكون كابوسي لا يصدق ، كالسكون داخل التوابيت المغلقة منذ قرون ، سكون يجعلك تحن إلى سماع اي صوت ، حتى ولو كان طلقة رصاصة .. اريد ان اسمع صوتاً حياً .. اي صوت .. كان أخي ما يزال نائماً (ام تراه مغلق العينين فقط ؟) قررت الاستماع إلى الراديو ، وهو أداة لا اتعامل معها عادة إلا مؤخراً وللاستماع إلى المذيع شريف فقط ، الذي يخاطبنا بصدق مباشر دونما حذلقات خطابية سمجة .. فأخفض صوت المذياع . بحيث لا اميز الغناء أو الموسيقى او الثرثرة ، ولكني اعرف نبرة صوت شريف ، وحين اسمعها ارفع صوته ، وحين ينتهي الكلام أعود إلى حشو القطن في فم المذياع .. وهكذا ..

اليوم ، لشدة وحشتي ، ادرت زر الراديو ، وكان المذيع يقول : قضت العاصمة ليلة هادئة ما عدا طلقات متقطعة في منطقة القنطاري وحول فندق « الهوليداي إن » ...

وصرخت به : الا تخجل من هذه الكذبة ؟

لم يرد علي وانما تابع قراءة نشرة الأخبار وانتقل فوراً للحديث باسهاب عن الحرب الأهلية في ... البرتغال ..

صرخت به : ولكنني لا ألومك ... انت مجرد حنجرة ، وهم يحشونها بالمعلومات الكاذبة ... انت مجرد أداة للجريمة ..

لم يرد المذيع عليّ وانما تابع قراءة الأخبار عن أنغولا ..

وصرخت به : انت المسدس ، وهم اليد والطلقة ... وحينما تقع جريمة ، يجب سجن القاتل لا المسدس ...

ولم يرد المذيع عليّ وإنما بدأ يتحدث باسهاب عن حالة الطقس في جزر الكناري ...

وبدأت الانفجارات تتوالى ... وتتعالى متلاحقة ... ونهض أخي مذعوراً يبحث عني ...

وقررت : نشرة الأخبار الحقيقية هي ما نسمعه من الريح ، لا من الراديو ..

* * *

كابوس ١٧

حاولت ان اتلهى عن صوت الرصاص باعداد وجبة طعام ... كان في المطبخ بعض ثمرات من البطاطا المنسية في ركن معتم . اخرجتها وغليت الماء تمهيداً لسلقها . حملت واحدة منها وقبل أن اغطسها في الماء المغلي فوجئت ببرعم أخضر وقد بدأ ينمو من أحد جوانبها . ذهلت . شعرت بأن البطاطا (التي اراها كتلة بنية جامدة) هي جسد حي ، يخفق بالحياة ويتوالد ويتكاثر ... وضحكت كثيراً من نفسي وانا أصرف النظر عن فكرة سلقها (حية) ! ... اعرف انني كنت دائماً عاجزة عن قتل حتى بعوضة أو ذبابة او نملة ، لكني أعرف أيضاً انني اذا جعت بما فيه الكفاية ، فقد أصير على استعداد لالتهام أول مخلوق أجده في طريقي حتى ولو كان رجلاً .

مأساتي اني اعتبر اي حادثة قتل مأساة كونية ... قطف زهرة هو بالنسبة إلي حادثة قتل ... وحينما يهديني أي انسان باقة من الزهور أشعر بحزن عظيم لأنهم أغتالوها لأجلي .. ... واذا أحاط أحدهم رقبتي بعقد من الياسمين فأن بدني يقشعر ، كما لو أحاطوه بحبل ربطت اليه عشرات الجثث ....

موقفي من الحياة يمثله البروفسور « لورين ايشلي » الذي صاح بعفوية مخاطباً الدم الذي تدفق من فمه حين زلّت به القدم على الرصيف : « أنا آسف لما سببته لكم .. آسف جداً » وكان البروفسور يعتذر من دمه ! وحين ظنه زميله مجنوناً قال له مفسراً : كل نقطة دم هي مجموعة لا متناهية من الخلايا الحية ... وانا حين سقطت وبالتالي نزفت ، سببت موت عدد كبير منها ، فخاطبتها وهي تحتضر على الرصيف مثل قبيلة من السمك المرمية على الرمل الحار لتموت .. لقد سببت للكون الذي اقطنه عدداً هائلاً من الوفيات (خلايا الدم) وهو عدد يفوق عدد الناس الذي قد يقضي عليهم انفجار ذري ! ... أجل ! إن مصرع أية حياة هي كارثة كونية لا بالنسبة لكوكبنا فحسب ، بل ولبقية الكواكب الأخرى أيضاً ، فالكون بمجمله يصح تشبيهه ببحر من الحياة ، وكل منا نقطة في هذا البحر الشاسع ، وموتها يؤثر على نحو ما بكل شيء ، والقتل جريمة بحق الحياة ، لا بحق القتيل فقط ... لذا ، وأياً كانت قناعاتي ، كان من الصعب جداً جرّي إلى الإقرار بالعنف وسيلة لاي شيء رغم معرفتي الأكيدة بان التبديلات الجذرية في تاريخ الكرة الأرضية لم تتم إلا عبر العنف .. كان ذلك يعذبني ... ذلك التناقض في

داخلي بين العنف واللاعنف، عليّ الوصول إلى قناعة عقلية بخصوصه ... ولكن، هل يمكن للعنف ان يولد من مجرد قناعة عقلية ؟ ام من حاجة جسدية للدفاع عن النفس ، وردة فعل عفوية لجائع أمام متخم مثلاً ؟ أم كلاهما معاً ؟ لا أدري . كل ما أدريه هو أن أخي يدور حولي في حالة غيظ بانتظار أن يستقر رأيي على ما سنأكله ، فقد كنت قد قلت له : لن نأكل البطاطا لانها (فاسدة) ولم أقل لأنها (حية) خوفاً من سخريته ... فتحت البراد من جديد اتأمل ما خلفته جدتي .. لا شيء يذكر غير مخزون جيد من اللحوم ... ومأساتي اني صرت عاجزة تماماً عن أكل اللحوم .. لكثرة ما شاهدت من جثث مرمية في الشوارع على طول الأشهر الستة الماضية – منذ استعرت الحرب الأهلية – صرت شبه قانعة بأن لحوم أسواقنا كلها هي لحوم بشرية .. ولم أكن قد تحولت إلى حيوان مفترس بعد ... ما زلت أطعم النمل الذي يقطن زوايا بيتنا ، وادافع بضراوة عن كل الكائنات التي تشاركنا مسكننا ، وأخفي دوماً المبيدات التي تتبنى جدتي استعمالها رغم غضب اسرتنا لتصرفي (غير الصحي) هذا ... أجل ! لم أذق طعم اللحم منذ شهور ، فالرصاص يسكن منطقة المسلخ حيث يفترض ذبح المواشي ، فمتى تسنح الفرصة لممارسة ذلك ؟ بينما اللحم البشري مكدس في الشوارع ومسلوخ الجلد مقطوع الرأس غالباً ... فكيف آكل اللحم ، ومن يقنعني انني لا آكل قطعة من ذراع صديقي التي طالما ضمني بها إلى ما قبل دقائق من مقتله أمام عيني ؟ ...

... عدت وفتحت الثلاجة فقد يكون فيها بعض الخضار المجلدة المحفوظة ، لكنني فوجئت فيها برأس مقطوع متجلد مسلوخ الجلد ...

وبدأت اصرخ .. واصرخ .. واصرخ .. وعبثاً حاول شقيقي إقناعي بأن ما أراه هو رأس خروف مقطوع لا رأساً بشرياً .. وحمل الرأس المقطوع غاضباً ، وقال انه سيهبط إلى بيت جارنا العم فؤاد في الطابق الأول من البيت العتيق كي يتم طبخه هناك ودعاني للحاق به ..

حينما ذهب ، وجدتني أغلق باب الثلاجة باحكام ... كنت واثقة من انها مليئة بعشرات الجثث ، وبعضها لم يمت تماماً ، وما زال يصرخ ... وينتحب ويحتضر على أرصفتها .. أحسست ان جميع ثلاجات بيروت لم تعد صالحة لغير حفظ جثث القتلى المجهولين ... المرميين في الشوارع ..

كابوس ١٨

ساعتان من الهدوء الطويل ... لم اسمع خلالهما سوى انتحاب رعايا دكان بائع الحيوانات الاليفة .. وكانت أصواتهم تحمل إليّ الخوف والقلق والغضب والحيرة ... (تراها أصواتهم ام صوتي الداخلي) ... منطقياً ، ليس من الممكن أن أسمع أصواتهم ... دكانهم تقع على الناحية الأخرى لحديقة بيتنا ... وحديقة واسعة مهملة تفصل بين بابنا الخلفي وبين الجدار الخلفي لمخزنهم ... لم يحدث أن سمعت أصواتهم قط من قبل ... وربما كان ذلك يعود إلى جلبة الشارع عادة ، وزعيق السيارات التي كانت لا تهدأ ليل نهار وأحاديث المارة والباعة وسيمفونية الحياة الاعتيادية ... أما في هذا الهدوء المطلق — الذي كان يسود هذه المنطقة حين كانت حقولاً منذ نصف قرن ، أي قبل بنائها — فلعله من الممكن (علمياً) سماع أصواتهم ... ام تراها حاسة غامضة هي التي تلتقط كهاربهم ؟ ما الذي يربط بيني وبينهم ؟ ولماذا تعلو أصواتهم تدريجياً ، حتى اسمعها تغطي الحي بأكمله ، خارجة من كل قفص ، ومن كل حنجرة مسالمة ، جرحها الرعب والحذر والترقب ... تتعالى الأصوات فأسد اذني باصابعي واركض نحو النافذة بحثاً عن مربع في السماء ... السماء غطاء علبة فولاذية !

* * *

كابوس ١٩

هدأ المطر ... عادت السماء زرقاء صافية بعد انحسار مجزرة العاصفة ... انه طقس غير مناسب للموت ... والرصاص هادىء منذ أكثر من ساعتين . لعلهم ناموا تعباً (اي المقاتلين) خلف مدافعهم . لعل ذخيرتهم نفدت . لماذا لا نغادر هذا القفص قبل ان نموت خوفاً او حرقاً أو جوعاً ؟ ...

تأملت الشارع من النافذة وقررت : اذا مرت سيارة واحدة أو رجل واحد ولم يُطْلَق الرصاص عليهما فسأغادر هذا المكان فوراً مع أخي أو بدونه .

كانت الساعة تشير إلى تمام الواحدة ، وحتى الواحدة والنصف لم تمر سيارة أو مخلوق ، ولم يخرج من النوافذ المقابلة رأس .. وغمرني جو من الرهبة والخوف والضيق ، وقررت مغادرة البيت ...

وفجأة ، ظهر كلب على الناصية ... اقترب من كومة القمامة يفتش عن رزقه

اليومي . ثم بدأ يسير على الرصيف ببطء شديد .. وتساءلت : أتراه يلحظ ان الشارع قد تبدل ؟ هل يلحظ خلوه من المارة والسيارات ؟ هل يضايقه ذلك أم يسعده أم انه لا يبالي ؟

وفجأة ، انطلقت رصاصة من مكان ما فأصابت الكلب ، وسقط على الرصيف وهو يزعق في ألم بهيمي مؤثر ، وكانت الشوارع الفارغة تردد صدى صيحاته وتردده‍ا الجدران كما لو كانت عشرات الميكروفونات ...

انه القناص نفسه .. البارحة قتل رغيفاً من الخبز ، واليوم عاد إلى توكيد وجوده بقتل الشيء الوحيد الحي الذي تجرأ على الحركة في شارعنا الميت ! .

* * *

كابوس ٢٠

كأن كل مخلوق على وجه الأرض حمل طبلاً وبدأ يقرعه .. كأن كل الزواحف الديناصورية المنقرضة مزقت صفحات التاريخ وخرجت تهدر وتصرخ ... كأن الفصول الأربعة تتشاجر ويخرب بعضها بعضاً ..

هكذا يجيئني صوت المتفجرات والقنابل إلى الطابق الثالث المرتفع على التلة التي شيد بيتنا فوقها ... هكذا تأتيني الأصوات موجة من العنف الذي لا يصدق ... كأن السماء انشبت أظافرها بالأرض ... وتحملني الموجة .. تصيبني بما يشبه الإغماء .. تطير بي إلى مراحل غير مألوفة من الوعي .. تذكرني بما فعله بي مخدر الـ (ال.اس.دي) يوم جربته ورحلت عبره إلى دنيا من حواسي المنسية ... حواس تقطن كل إنسان لكنه نسي استعمالها منذ قرون .. حواس تستطيع ان ترحل بي إلى أيامي في رحم امي ، وتمكنني من الانتقال إلى كواكب اخرى كونية ، حواس مذهلة القدرة على التقاط ما هو خارج دائرة الحياة الاجتماعية ، ما هو خارج اليومي والمألوف والمعتاد ..

وانا اقف الآن على الخيط الفاصل بين الموت والحياة ، اشعر بحواسي النائمة تستيقظ وتخرج إلى سطح الوعي كغواصة ينشق البحر عنها فجأة ، موجة العنف والصخب اللامتناهي تحملني إلى حيث لا أدري ... واغمض عيني كي ارى جيداً ... كي أراهم ..

* * *

كابوس ٢١

أرى دكان بائع القبعات . ارى الرصاص يثقب القبعات كلها . في كل قبعة عشرات الثقوب .. في مكان آخر ، أرى الرؤوس التي كان مقدراً لها ان تبتاع هذه القبعات وترتديها وهي تتابع حياتها في أمكنة بعيدة مختلفة ... ارى الرصاص يثقبها أيضاً ... كل رصاصة تخترق الرأس في الموقع ذاته الذي اخترقت فيه القبعة التي كان مقدراً للرأس ان يشتريها !

* * *

كابوس ٢٢

اراهم يقتادون الشاب إلى الرصيف . كل ذنبه انه مر في شارع توقفت فيه قبل دقائق سيارة تقل بعض المسلحين . شقيق احد المسلحين كان قد قتل ، وهو يفتش عن اي كبش فداء . اسمه ليس مهماً ... المهم دينه ... المهم ان يكون من دين مختلف عن دينه ...

امسك شقيق القتيل بالشاب الصغير كبش الفداء .. بدأ يشتم دينه . دهش الشاب فقد كان طالباً في الفلسفة وكان يؤمن بالله لكنه يجد الأديان كلها وسيلة لاقتراب الانسان من الله ، وحين تأتيه لحظة الحاجة إلى الاقتراب من خالقه ، كان يصلي في أول معبد يمر به كنيسة أو جامعاً ، وان كان يفضل الركوع على ركبتيه على شاطىء البحر ومناجاة خالقه بعيداً عن الجدران ... تاركاً للريح ذبذبات صلاته تنثرها في الكون الشاسع مضيفة بضع نقاط مضيئة ، تقتل شيئاً من ظلمة البغضاء والبهيمية المهيمنة على عالمنا سحابة شر .

جروه إلى الرصيف . قال لهم : ما ذنبي ؟ .. أخو القتيل كان غاضباً . رد عليه ببعض الشتائم . كاد المسلحون يتشاجرون . يقتلونه هنا ام ينقلونه معهم ؟ ... من سيقتله . كيف . سأله أحدهم : كيف تحب ان تموت . قال لهم : لا احب أن أموت . اقترح أحدهم اطلاق رصاصة سريعة على رأسه والتحرك فوراً قبل مرور جماعة أخرى . قال لهم : لا احب ان أموت . أصر الشقيق المفجوع على أن قتل الشاب من حقه هو . قال لهم : لا أحب ان أموت . سأله أحدهم : إلى أي حزب تنتمي ؟ قال انتمي إلى « حزب الحياة » . سألوه : ما اسمك ؟ قال : لبنان . اسرتك ؟ العربي . صرخوا به : هذا ليس وقت المزاح . من انت ؟ كرر :

(اسمي « لبنان العربي » ولا أريد أن أموت) .

قال أحد المسلحين « من الأفضل اختطافه والتحقيق معه أولاً ثم « تسويحه » (اي قتله) » . ودب الخلاف بين المسلحين حول قضية القتل الفوري ام المؤجل ووجهوا اسلحتهم ، كل منهم نحو الآخر ، وانتهز الشاب الفرصة . بدأ يمارس وسيلة القتال الوحيدة التي يعرفها : الركض ...

بدأ يركض على الرصيف كالمجنون ... ركض طويلاً طويلاً ولكنه كان يسمع وقع خطى تركض خلفه ... تعثر وسقط على الأرض ولم يكن الظلام دامساً ، فقد كان نور أحد مصابيح البلدية يسطع في الشارع وأدهشه ذلك فقد أحس بانه في غابة ، وقبل عصور اختراع الكهرباء ، وحتى النار ... والخطى الراكضة خلفه توقفت وشاهد وجه المسلح المصر على قتله .. شاهده بوضوح صاعق .. كان يبكي أيضاً مثله ... قال له : اخي اطفائي ذهب ليطفىء الحريق فقتلوه واعادوه لنا جثة .. ظنه الشاب يشكو له وكاد يرق قلبه لحاله ويسأله مزيداً من التفاصيل ، لكن وجه الاخ تحول فجأة إلى وجه جزار وهو يقول له : وانت ستموت ثمناً لذلك ... انهم من (ملتك) ..

اراد ان يرد عليه ... ان يقول له أشياء كثيرة .. ان يفسر له حكاية (الملة) ومعناها الحقيقي ... لكنه أيضاً أدرك ان الوقت ليس وقت (فلسفة) و (حوار) وانما (اسلحة) ولم يكن يملك اي سلاح .

كان ما يزال في موضع سقطته على الرصيف ، فبذل جهداً جباراً للخلاص من قبضة جزاره والوقوف ، ووجد نفسه يتعلق بافريز رخامي في الجدار ... وكانت حواسه في غاية الحدة والتنبه وعلى ضوء الشارع الشاحب قرأ كتابة محفورة على الرخام : سبيل لوجه الله . تقدمة سليم الفاخوري ١٩٥٥ . كان السبيل جافاً . لا قطرة ماء . لكن المسلح لوى له رقبته حتى الصقها على الحافة الرخامية للسبيل وبسرعة هوت سكينه على شريان الرقبة الكبير .. شهق وانتهى الأمر بالنسبة اليه ... وظل المسلح يجز عنقه حتى بعد ان تهاوى جسده ، وتدفق الدم من السبيل ، الجاف ربما منذ أعوام ... تدفق الدم .. تدفق .. تدفق ... غسل الشوارع .. صار يعلو .. يعلو .. يغطي الطرقات .. يصل إلى نوافذ البيوت .. كان مثل نبع اسطوري لا ينضب .. يتدفق إلى داخل البيوت .. إلى داخل الغرف ... إلى ركبتي ... خصري .. صدري .. عنقي .. اشهق وانا اختنق بالدم

واصرخ .. واستيقظ (ام تراني انام من جديد في دنيا الحواس المحدودة ؟) ...

* * *

كابوس ٢٣

الا يتعب الرجال ؟ ..

ألا تستريح أصابعهم المشدودة على الزناد ؟ .. فترات الهدوء لا تكاد تذكر .. وقررت : لا بد وان استبدال المقاتلين يتم خلال لحظات الصمت المتوتر العابرة ..

الآن عاد ذلك الصمت المتوتر المروع .. ارهفت السمع .. سمعت صراخ بعض الرجال ، لكنني لم استطع تمييز كلامهم .. فقط أصوات نداءات سريعة وحادة كصراخ الخطر لدى طيور الغابة .

كانت مأساتي ان بيتي يقع في منتصف الطريق تماماً بين المتقاتلين ... تماماً في الوسط .. تذكرت الذي قال « خير الأمور الوسط » وترحمت عليه ... لو كان يسكن بيتنا ، لقال شيئاً آخر ربما .. كنت أعرف ان المقاتلين في الشوارع خلفنا ، لا بد وأنهم يتصلون بالناس ، وربما يتقاسمون أرغفة (المناقيش) معاً ... أما موقع بيتنا في الوسط تماماً على تلة مكشوفة من كل الجهات ومحاطة بحدائق برية الأعشاب ، كل ذلك جعل الاقتراب منا أمراً مستحيلاً للطرفين ... وحتى للطرف الثالث من الغربان الذين احترفوا سرقة البيوت المنكوبة بالحرب ..

كنا كسكان وادي الجذام ، لا أحد يجرؤ على الاقتراب منا .. حتى اللصوص !! ... وحدها القذائف تجرؤ على زيارتنا وقرع أبوابنا وجدراننا ...

* * *

كابوس ٢٤

انه الغروب ...

دوماً يأتيني حبيبي مع الغروب ... مع الفجر ... مع الرعد .. مع المطر .. مع كل ما هو مهيب وازلي ..

دوماً يأتيني حبيبي مع الخريف ، كأن الخريف هو آثار أقدامه على الأرض ... يهبط إلي من جنون سيمفونية الموت والمتفجرات ، ويدخل ممزقاً بالرصاص تماماً كما شاهدته آخر مرة .. وأركض إلى صدره المزروع بالزجاج المكسر المسنن ، فتنغرس قطعه في

صدري أيضاً كلما زاد في ضمي إليه ، ونلتحم بالموت والوجع ، وتصير سكاكين الزجاج جسوراً ، بل وشرايين مشتركة لجسدينا ... وشيئاً فشيئاً يخيم الظلام .. ويتلاشى بين يدي وانا اصرخ به : ولكنني ما زلت احبك ...

* * *

كابوس ٢٥

« ولكنني احبك » ..

وكانت السيارة تركض بنا في شوارع بيروت في أواخر الربيع الماضي (ربيع ٧٥) يوم انفجار العنف .. — الجولة الأولى — ...

« ولكنني احبك » ...

وكنا نتحدث عن مهزلة اكتشفناها فيما بعد ، وهي ان الكلمة المكتوبة في خانة المذهب لديه هي غيرها لدي .. أي اننا باختصار من دينين مختلفين ...

« ولكنني احبك » ...

وكان يبلغني رفض والده القاطع لزواجنا ... بسبب الفارق في الدين ! .

« ولكنني احبك » ...

لم يكن بوسعي ان اصدق ان الأديان وجدت لتدمير الحب بدلاً من اشعال ناره ...

« ولكنني احبك » ...

قال : اذن سنتزوج على أية حال .. سنتزوج مرة في الصحراء أمام النجوم والكون وذاتينا والله الحاضر في داخلنا وفي كل مكان ... ومرة في كنيسة ... واخرى في جامع ، فقد نرضي الجميع ..

قلت : إرضاء الجميع مستحيل ، وعمل غير اخلاقي . من واجبنا ان نوقف جنون التقسيم داخل عقولهم ، بدلاً من مسايرتهم ..

وفجأة ، اوقفنا حاجز عجيب غريب ... كان هنالك خيط رفيع من (المصيص) وقد ربط من طرف الرصيف ، إلى الرصيف الآخر ، ... وأمام هذا الحاجز العجيب وقفت مجموعة من الأطفال قائدهم واكبرهم في العاشرة من عمره ...

كنا نضحك . عز علينا ان تمزق لهم خيطهم (الحربي) فتوقفنا لحاجزهم . كانوا جميعاً يحملون العصي كما لو كانت بنادق ، فازددنا ضحكاً ... وطلبوا مشاهدة تذاكرنا

(بطاقات الهوية الشخصية) فأخرجناها لهم وقد سلّتنا المسرحية وقال حبيبي : انهم يذكروني (بشقاوة) تلاميذي في المدرسة حين كنت ادرس في صفوف الصغار .. وقال لنا الصبي ابن العاشرة : يجب خطف المرأة وقتلها . انها من غير ديننا . اما انت فتستطيع ان تمر .

كان صوته مرعباً وحاداً مثل انياب قط صغير متوحش . وتأملنا وجوه الأطفال فبدت لنا مثل وجوه كبار مركبة على أجساد أطفال ... وبدأت لحاهم تطول ... واظافرهم تكبر ... ووجوههم تتجعد والعرق يتصبب من جباههم ... صاروا مجموعة من قطاع الطرق الأقزام ... خفت وصرخت بينما انطلق حبيبي بالسيارة وهو يسأل : ماذا دهاك ؟ ..

* * *

كابوس ٢٦

بعدها بأسابيع ، وكانت المعارك ما تزال مستعرة اوقفنا في المكان نفسه حاجز .. هذه المرة لم يكونوا أطفالاً أقزاماً .. هذه المرة كانت البنادق حقيقية .. هذه المرة كانوا من تلامذة حبيبي فعلاً .. تنهد يوسف بارتياح حين شاهد وجوههم وقال لي وهو يفتح باب السيارة ليحدثهم : انهم تلاميذي فلا تخافي .. اما هم فتحدثوا الينا كأطفال الحاجز الأول . اللهجة نفسها ... العيون المنومة نفسها كأنما بفعل سحر شرير غامض ... طلبوا تذاكرنا . قال لهم : ولو .. الا تعرفون استاذكم .. انا يوسف ...

كرر تلميذه السؤال بصراحة أكثر . اعطيتهم تذكرتي وكذلك فعل استاذهم ، حبيبي . بدأ احدهم يشتمني لانني اخرج مع شاب من غير (ملّتي) ... وغضب يوسف ، وصرخ بتلميذه : حتّى انت يا ..

وفوجئت برد التلميذ . قال له ببرود معدني عجيب : كل ما نعرفه الآن هو انك من دين آخر .. دين الذين خطفوا ابن عمي وعذبوه وقتلوه .. صرخ بهم : ايها الأغبياء .. الا ترون انكم فقراء مثلي .. الفقر ملتنا الأولى ... الفقر يجعلنا حلفاء بوجه الذين لهم مصلحة في متابعة ابتزازنا عن طريق تخديرنا بخلاف ديني ... اسمعوا يا ابنائي ... ورد اصغرهم ، لم تكن لحيته قد نبتت بعد :

– سئمنا محاضراتك يا استاذ ... تفضل معي ..

ولم يكد حبيبي يدير ظهره ويخطو على الرصيف حتى دوى الرصاص ، وكان صوته في الليل عالياً وشبيهاً بزعيق طيور بحرية جائعة فوق جثة طافية ، وتمزق حبيبي أمام عيني ، تمزق كتفاه وذراعاه وظهره وصدره وكل موضع في جسده كنت قد قبلته ، دفعه الرصاص واخترقه فتهاوى فوق الواجهة الزجاجية لاحدى شركات الطيران وقد اخترقته سكاكين الزجاج أيضاً ...

لم اصرخ ... كنت مدهوشة ... كان كابوساً لا يصدق ... ركضت اليه ، وانحنيت فوقه ، ثم انفجرت اضحك اضحك واضحك ... كان موته نكتة غير معقولة ... وكان تصميم طائرة اعلانية ما يزال يضيء وينطفىء ... يضيء وينطفىء داخل الواجهة الزجاجية لمكتب شركة الطيران ... طالما حلمنا بالرحيل معاً ... لكن طائرات الحب من الورق ورصاص الواقع من نار ...

صفعني أحدهم مرات على وجهي قائلاً ان ذلك سيعيد لي رشدي ... وبسكينه حفر لي على ذراعي رمزي الديني .. وكان الألم مروعاً ، وقال لي : كي لا تنسي بعد اليوم ... انتماءك ... وتخرجي مع شاب من غير (ملتك) ... وركضت في دروب الليل صارخة : لكنني انتمي للحب وللحياة ... هذا محفور في قاع عظامي من الداخل ، لا فوق جلدي من الخارج ..

* * *

كابوس ٢٧

الباب يقرع ..

جارنا العجوز يسألني : هل عاد أخوك ؟ ..

ـ أخي ؟ ولكنه نزل اليكم !

قال بصوت حزين جداً : جاء الينا . لم نكن قد تزودنا بأية مؤونة ، فقرر الذهاب لاحضار نجدة غذائية .. قال اننا سنموت جوعاً فيما لو إستمرت المعارك يومين آخرين ! ..

صرخت : الذهاب ؟ ولكن كيف ؟ من أية طريق ؟ ألا ترى انهم اطلقوا الرصاص حتى على الكلب الذي تجرأ وعبر الشارع ؟

قال : لقد تسلل من الحديقة الخلفية حيث دكان بائع الحيوانات الأليفة ... انه شارع خلفي وضيق ، وفي مأمن نسبي عن العيون ...

صرخت : وكيف تركتموه يذهب ؟ انه غير مسلح .. قال العم فؤاد بأسى : لقد أصر على الذهاب وحمل معه مسدسي .

— ولكن مسدسك اثري ... مسدسك ينتمي إلى عصور الحرب العالمية وأيام (زمان) ... الدنيا تغيرت ... مسدسك أمام الأسلحة الحديثة مثل لسعة بعوضة امام ضربة اسد .

قال العم فؤاد بطمأنينة : ان البعوضة تدمي مقلة الأسد !

لعنت الشعر . واحترمت شيخوخته . كنت اعرف ان المناقشة معه ضرب من العبث ، فكل منا ينتمي إلى عالم بعيد بعيد ، والهوة شاسعة ...

ووجدتني اتساءل : ترى هل ذهب أخي حقاً لإحضار الطعام في عملية بطولية ، أم انه مثلي خائف حتّى الموت ، وقد فقد أعصابه وانتهز الفرصة للهرب دون ان يحمل مسؤولية (هربي) معه ؟ ...

ورجحت انه انتهز الفرصة للهرب . ولم ألمه . بل حسدته على شجاعته !! ... في مثل هذا الجحيم ، ربما كانت البطولة الوحيدة الممكنة للعزل امثالي هي أولاً : الهرب !... والبقاء أحياء ... أحياء .. أحياء ...

* * *

كابوس ٢٨

اقترب الغروب ، ولم يعد أخي ..

وانا اقرأ كوماً من الصحف القديمة وجدتها مكومة في زاوية المطبخ ... صحف عمرها شهران وثلاثة .. كلها تتحدث عن الموت والقتل والجثث والخطف وحربنا الاهلية المريرة ... كلها كوابيس كوابيس كوابيس ..

تنفتح أمامي دنيا من الرعب ... كأنني أخطو داخل سراديب الماضي .. كأنني اعيش أهوال الشهور الماضية دفعة واحدة ...

اقرأ واقرأ وتنبت الكوابيس داخل رأسي وتفرخ بوحشية نباتات ملعونة تتغذى بالدم ... تنمو كوابيس من الهول ..

للصحف العتيقة مذاق غريب ، كأنها تروي حكاية كل رصاصة اسمعها منذ البداية ... كأن كل كوابيس المدينة تعاود انزلاقها فوق صدري كحجر القبر ... كأنها

الحكواتي العتيق في مقهى مقفر، وانا المستمع الوحيد ، وحكاية عنتر بن شداد والزير ، ويوسف والبئر تحولت إلى حكاية لا حد لهولها ...

ويوسف ... ها هي صورة جثته وشرح الصورة يقول ان حاجزاً مسلحاً قتله ... هكذا ببساطة ودونما معنى .. موته موتان في قلبي ، مرة لانه مات ، ومرة لانه مات دونما معنى ...

* * *

كابوس ٢٩

انه الليل ، ولم يعد أخي .

الفراش ليس فراشي . الغرفة ليست غرفتي . صرير باب الخزانة ليس مألوفاً لدي . لا اعرف كيف أعالج مزلاج النافذة الحديدي . الأثاث البني الكئيب ليس أثاثي والجدران ليست جدراني . لكنني سأنام الليلة في هذه الغرفة ، وسأبدأ صفحة جديدة في دفتر تشردي ...

لقد اصر جارنا العجوز العم فؤاد على ان أنام في بيتهم بالطابق الأرضي . قال ان بيتنا في الطابق الثالث أكثر تعرضاً للصواريخ والخطر وانهم لن يتركوني وحيدة في بيت الرعب ..

هبطت اليهم . بيتهم حزين حزين . ككل البيوت التي يقطنها « الذكور » وحيدين ، حيث لا لمسة حنان انثوية تدفىء الأشياء . منذ ثلاثة أعوام توفيت ابنته الصبية وهي تضع طفلها الأول ، وبعدها بأيام توفيت امها (اي زوجته) ومن يومها لم يعد البستاني العجوز يهتم بزراعة البنفسج والبانسيه (الهرجاية) في الحديقة ... ومن يومها ذبل الاب الكبير ولم تعد ضحكته تضحك ... واكتفى بالحياة في شبه عزلة مع خادمه السوداني ، وابنه امين الشاب الوحيد ، والأعزب المزمن ...

ها انا من جديد اعلق ثيابي فوق (شماعة) لا تخصني .. اغسل وجهي في حمام لا أعرف بالضبط كيف افتح حنفيته ، وكم علي ان أديرها بحيث لا تنفجر أكثر مما يجب أو أقل مما يجب .. استعمل صابوناً ليس مألوفاً لدي ... امسح وجهي في منشفة أراها للمرة الأولى واكره رائحتها ... اتمدد في سرير لا أدري من نام به للمرة الأخيرة ... احدق في شقوق السقف ، المختلفة عن تلك التي ألفتها في بيتي ... كل هذه التفاصيل

الصغيرة هي برقيات خافتة من مملكة الغربة التي أخطو اليها ثانية ... انه التشرد من جديد ...

وغمرني غم لا حدود له ... ربما كان لون الاثاث البني العتيق المشبع بالكآبة ، وربما لانني شاهدت زوجة العم فؤاد تحتضر في هذه الغرفة وتموت على السرير ذاته ... كان رأسها في موضع رأسي تماماً ، ربما على الوسادة ذاتها ... وكان جسدها ممدداً في موضع جسدي ، وكانت أطول مني قليلاً لكن الموت جعل جسدها يتقلص ولعل موضع قدميها كان تماماً حيث اضع قدمي ... السرير باق ، وجثة تحل مكان جثة لتحل مكانها جثة أخرى ... والسرير يزداد كآبة . السرير يصير تابوتاً فور خروجه من المصنع واستعماله من قبل انسان ما لاول مرة ، ما دام كل منا مشروع جثة مكتملة ، ما دام كل انسان حي يحمل موته معه ! .. لماذا السرير ؟ لماذا لا ننام في توابيتنا منذ الولادة ، دونما لف او دوران او احتيال على بدهيات الحقيقة ؟ ... وشعرت بان الموت هو أمي الوحيدة والأولى والاخيرة ، وان أصوات الرصاص هي انشودتها وهي تهدهدني للنوم ... وبدأ شيء في داخلي ينزلق مني بعيداً ... بعيداً ... مخلفاً جسدي وحيداً ومكوماً على السرير ، وادركت انني ميتة مع وقف التنفيذ ..

* * *

كابوس ٣٠

آه اين انا ...

آه ماذا حدث ؟ ...

ايقظني انفجار رهيب ... صرخت .. سمعت صوتي وانا اصرخ حتى قبل ان استيقظ تماماً .. أخافتني صرختي أكثر من صوت الانفجار ... دفعة واحدة ، وعيت معنى ما يدور ...

كان انفجاراً شبيهاً بصوت الرعد تماماً ... ربما مدافع ميدان ١٦٠ ام تراها الكاتيوشا ام صواريخ غراد ؟ مدافع الهاون ١٢٠ او الهاون ٨٢ – يا للحسرة ... كانت اذني تعشق الموسيقى وتميز الطابع الخاص لكل عباقرة الكلاسيكيين وتعرف اسلوبهم بعد دقيقة من الانصات ... في كابوس بيروت ، الموسيقى رصاص ومتفجرات وها هي أذني تحفظ جدول نوطات أصوات الأسلحة ... بل انني اعرف من صوت الطلقات اي

الفريقين يطلق على الآخر واي الفريقين يملك هذا السلاح او لا يملكه ... لقد تخرجت من مدرسة « الحرب الاهلية » ، واعرف ان رعد البشر المدعو مدفع ١٦٠ يشبه رعد الالهة ، وان تلك الطلقة التي تشبه زعيق الغراب (الشوحة) هي طلقة بندقية فال وكال البلجيكية ، او إم ١٦ الاميركية ... اما تلك الطلقات المتدفقة كالمطر فهي قادمة من رشاشات ٥٠٠ الاوتوماتيكية الحديثة ، وإن كنت حين اسمعها اتذكر أفلام الكاوبوي التي شاهدتها في طفولتي واتخيل المقاتل يُدير دولاباً خشبياً ومع كل دورة تنطلق عشرات الطلقات ..

كانت الطلقات مستمرة دونما رحمة .. وكنت أحصيها كي لا أجن ، كما يحصي المرفهون الأغنام حين يعانون من الأرق ... كان النعاس يقتلني والنوم على مرمى رصاصة .. وهذه ليلتي الثالثة بلا نوم ..

بعد الطلقة الواحدة والعشرين ساد سكون عميق ... اية مصادفة .. هذه المدفعية ، كانما تطلق قذائفها حداداً على عظيم مات .... من الذي مات الليلة ؟ .. ما اسمه ؟ ... اية كوارث سرية تدور في هذا الليل الشاسع الاحزان والغموض ..

لم أنهض من سريري ولم ينهض أحد في البيت . لم يضأ اي نور. لم يقرع بابي مخلوق. ربما كانوا مثلي ، أكثر خوفاً من القدرة على مجرد الوقوف أو الحركة ...

بقيت وحدي في الظلام الدامس ارتجف . لم اعتب لان أخي مضى وتركني وحيدة . منذ مراهقتي وانا أعمل واعيل نفسي وامارس حياتي كأي (شاب) في الأسرة .. وانا الآن خائفة كما قد يخاف اي شاب أعزل في ليل الجنون ... الخوف (انساني) لا (انثوي) ... ومع ذلك لا استطيع ان اتجاهل صورة حبيبي يوسف ، وصدره الشاسع الذي اقتحم وحشتي ... تمنيت باخلاص لو يضمني اليه واضمه إليّ ... لم اكن اريد ان اختبىء في صدره ... كنت أريد ان يحتمي أحدنا بالآخر مثل دفتي نافذة تنغلقان معاً في وجه العاصفة ... لم أكن أحلم بان يغمى علي مثلاً بين ذراعيه ... لكن الليل سيكون أقل ظلمة وصوت القنابل أقل هديراً بالنسبة له ولي لو كانت يدانا متعانقتين ... وحتى في الزلزال تلتصق الوحوش بعضها ببعض .. الموت الجماعي ليس مرعباً كالموت الفردي ... الذي يموت وحيداً يموت مرتين : مرة لانه وحيد ، واخرى لانـــه ... مات ! ...

كابوس ٣١

رغم ان القنابل توقفت .. والرصاص ... وعاد السكون الشامل يخيم على كل شيء . فقد عجزت عن العودة إلى النوم .

بدأ الصمت يخيفني أكثر من الانفجار ... في الصمت اسمع صوت قلبي .. في الصمت اسمع عضواً ما غير مرئي في جسدي ينزف باستمرار ، وعلى البلاط البارد تسيل قطرات الدم نقطة نقطة في الظلام ... نقطة نقطة ... (ام تراه صوت حنفية الماء غير المغلقة جيداً في الحمام الملاصق لغرفتي ؟) .. في الصمت اسمع صوت كائنات دكان بائع الحيوانات الاليفة .. وقد بدأت تجوع ، وتعطش . وتموت شوقاً للشمس . وينفد املها وصبرها ، اسمع بعضها يضرب رأسه بجدران القفص احتجاجاً وبعضها الآخر يجلس بهدوء منتظراً تطور الأمور ، ألبعض يصلي . والآخر يحلم أو يكفر أو يحاول الهرب أو يلقي بالخطب والمواعظ .. تماماً كالبشر ... تماماً مثلنا نحن سكان هذا الحي الأليف ..

كان صمتاً طويلاً حزيناً ... ثم عاد صوت الرصاص شيئاً فشيئاً ... كان قريبا جداً وحدست ان معركة ما تجري في الشارع امام بيتنا .. وفجأة انطلق بوق سيارة ما ...

بدا الصوت غريباً وطريفاً وسط صوت الرصاص .. بدا انسانياً مثل رجل يعول وقد اصابته رصاصة .. في الظلمة والرصاص وعتمة الانفجارات استأنست بهذا الصوت.. وحزنت أيضاً ... خمس دقائق وبوق السيارة يعول بأعلى صوته ثم بدأ الصوت يخفت تدريجياً تدريجياً كأنسان يحتضر مشرفاً على الموت النهائي .. ولعل الصوت ضايق احد المسلحين فقد انطلقت زخات شديدة من الرصاص وسكتت السيارة بعدها تماماً . ماتت تماماً .

افتقدت صوت بوق السيارة .. افتقدت الحياة .. زحام السير ... زعيق الأبواق على طريق الجبل . ويوسف إلى جانبي ... نضحك .. ونشعر بالشماتة كلما رأينا سيارة (رسمية) وقد انقلبت على جانب الطريق وقد اصابها حادث ما ..

ووجدتني اغني بصوت خافت :

جادك الغيث اذا الغيث همـا   يا زمان الوصـــل بالاندلس

وكانت صورته تملأ عيني ... والدموع أيضاً ... وفكرت بهلع . تراني بدأت أجن ؟

وهل هذه اغنية ام شهقة احتضار ؟ ...

* * *

كابوس ٣٢

حين استيقظت غمرني الهلع ...

كانت الغرفة غريبة ومألوفة في آن واحد . ثم تذكرت كل شيء ... ظللت وقتاً طويلاً ممددة كما أنا ، ارقب انزلاق البقعة المضيئة القادمة من ثقب بالنافذة التي اخترقتها رصاصة ما ... (هل يمكن ان تكون هذه هي الحقيقة بكل بساطة ؟ والنور لن يدخل إلا إذا خرقنا جدران سجوننا بالرصاص والمتفجرات ؟) .. انسللت من فراشي . كان البرد شديداً .. كان البرد ينسكب من كل قطع الأثاث غير الاليفة المحيطة بي ... غمرني بؤس عميق ... كم وكم ارتديت ثيابي في غرف غريبة باردة في بلاد نائية ، غرفة لكل يوم ، ووجبة من الكآبة والوحشة لكل صباح ...

خرجت إلى الردهة ... كان من الواضح ان العم فؤاد قد استيقظ منذ زمن طويل . لا يبدو عليه انه لم ينم في الليلة السابقة .. حسدته على سمعه غير القوي ... الطرشان وحدهم قادرون على معايشة كوابيس بيروت بعد ان تخلصوا من احدى حواسهم .. فحين تصير الحياة كابوساً ، تصير الحواس أدوات للتعذيب ..

كان يقف امام النافذة ، وحياني برقة منقرضة .. في الخارج كانت نبتة ياسمين كثيفة تلتمع في ضوء الشمس التي لم تشرق بعد (ام تراه سيكون يوماً غائماً ؟) ... لم يكن بيننا من يجرؤ على الخروج إلى الحديقة حتى للاستفسار عن صحة الشمس ... وتمنيت لو ادفن وجهي في الياسمين واغمض عيوني لأطير إلى ليل الحنان ... ليل يوسف .. (يا ميت مسا ، حيي المضى ، ما بينتسى يا ميت مسا) وبدأت اترنم بها بصوت جنائزي .. لا ادري لماذا صار لكل اغاني الماضي طعم الرماد والدموع في فمي ، منذ مصرع يوسف .

قال لي العم فؤاد انه سيخرج ويقطف لي ياسمينة ، وتوسلت اليه ان لا يفعل حرصاً على حياته وحياتها . فبدل رأيه فوراً وبدا سعيداً لانني لم اتركه يدفع حياته ثمناً لنزوته الطيبة هذه ... او يضطر للتراجع كطفل مذعور ..

صار لمس الياسمين أمنية ، والوقوف تحت السماء طموحاً ... استيقظ امين أيضاً ووقف إلى جانب ابيه . بانا لي لوحة للخوف والبؤس . تبدو وكأنها ' ابة العالم حين لا

يحلق الرجال ذقونهم .. توسلت اليهما أن يفعلا ! ..

* * *

كابوس ٣٣

اصعد الدرج إلى بيتي في الطابق الثالث . للمرة الأولى ألحظ ان نوافذ الدرج كثيرة وكبيرة وكل من يمر امامها هو هدف جيد لقناص في اي بناء من الأبنية الحديثة الاسمنتية المحيطة ببيتنا البيروتي العتيق المبني من الحجر الرملي (كأكثر بيوت بيروت القديمة) .. وكنت كلما مررت بنافذة ، اخفض رأسي لا شعورياً ، رغم معرفتي المستجدة بان رصاص الاسلحة الحديثة لا يؤمن بان الخط المستقيم هو أقصر الطرق إلى الهدف وانما يؤمن باسلوب الجرذين في الركض من جدار إلى آخر ، او باسلوب كرة البلياردو .. سمعت الهاتف يرن ... ربما كان أخي ... سارعت افتح الباب .. لاحظت ان يدي ترتجف وانني عبثاً أدخل المفتاح في القفل . حين نجحت في فتح الباب كان الهاتف قد كف عن الرنين . حزنت حزناً عميقاً . كنت بحاجة إلى سماع صوت خارجي .. اي صوت ، عاد الهاتف يرن. ركضت ملهوفة . كانت المتحدثة فتاة تدعى سلوى وهي شقيقة زميلة لي اسمها مريم .. سلوى بنت صغيرة وحلوة وطيبة . « أمر يا سلوى . ماذا تريدين . هل اختك مريم بخير ؟ » ... ردت : « أجل وقد اعطتني رقمك الهاتفي » ظننت سلوى بحاجة إلى رغيف خبز مثلي ، او نجدة عسكرية تخرجها من مأزق مماثل. بالفعل. كانت بحاجة إلى خدمة . ماذا ؟ .. قالت : ارجو منك ان تتوسطي لي لدى صديقك الاستاذ صبري كي يضمني إلى فرقته للرقص الفولكلوري ! ! ... انني أعشق الرقص ! ! ...

* * *

كابوس ٣٤

كانت سلوى ما تزال تتوسل إلي كي اتوسط لها لترقص الدبكة . وكنت صامتة ، مذهولة ، وعبر القمرية الزجاجية العالية كنت ارى سحباً مروعة من الدخان . لا أدري كيف استطعت ان أكون مهذبة ، ولا أصرخ بها : المدينة تحترق وانت تتحرقين لرقص الدبكة . بدلاً من ذلك سألتها بلطف : اين اختك مريم ؟ ولماذا لم تتصل بي بنفسها ؟ ردت سلوى ساخرة جداً : لأنها حملت السلاح وذهبت لتقاتل مع الميليشيا .

لم أقل لها شيئاً . فقط وعدتها خيراً وودعتها على أن تتصل بي في الغد (!) وسارعت

أتلصص بحذر من النافذة .... كان هناك حريق يتصاعد من مبنى فندق « الهولبداي إن » المقابل لبيتنا ... بدأت أعد طبقات المبنى العملاق . وكان لسان النار يخرج من شرفة الطابق الثامن . كان لساناً كبيراً ما لبث ان دخل إلى فم الطابق التاسع فالعاشر ... كانت النار تستعر بسرعة لا تصدق والدخان الأسود يغطي وجه البحر والقذائف والانفجارات تتعالى والذهول يفترسني ... شيء يتحطم . انه زجاج النافذة في الغرفة المجاورة . ركضت بين غرف البيت ابحث عن غرفة بلا نوافذ ... صعقت ... اكتشفت ان ليس في البيت حتى ولا غرفة واحدة بلا نوافذ ... للمرة الأولى ألحظ ان واجهة بيتنا بأكملها من الزجاج . ونصفه من الزجاج الملون على الطراز القديم . الزجاج الملون قد يعني مناخاً بيزنطياً روحياً ساحراً في أيام السلم . أما في الحرب فالزجاج مرشح لان يصير قطعاً من الخناجر المتطايرة في كل الاتجاهات في حال حدوث انفجار ... لاحظت أيضاً ان نوافذ البيت كبيرة وشاسعة .. الرجل الذي بنى هذا البيت لم يكن يفكر بالحرب . كان يفكر بالحب والسلام والأفق . وكان حريصاً على ان يطل البحر من كل نافذة حتى من نوافذ الحمام ... الدهليز فقط كان بلا نوافذ ولكن ما الفائدة من استعماله كملجأ . وثلاثة أبواب تنفتح عليه ؟ . وكانت الانفجارات ما تزال تزلزل البيت واصوات تكسر الزجاج في الحي تسمع بوضوح بين دوي وآخر ..

ووجدتني اجلس على الأرض وحيدة في الدهليز ... ثم نهضت . احضرت كرسياً وجلست عليه . ووضعت أمامي علبة سجائر وكبريت . واستسلمت لجنون المتفجرات ... كنت اعي جيداً انني ربما للمرة الثالثة أقف على الخط الدقيق الفاصل بين الموت والحياة . وغمرني صفاء عجيب . وفي ذلك الدهليز الضيق كانت انفجارات متلاحقة تضيء اعماقي ..

* * *

كابوس ٣٥

كانت أبواب مغلقة في داخلي تنفتح باباً تلو الآخر ... ووجدتني أحدق في الأشياء فأرى إلى أبعد منها ...

في الممشى أمامي على طول الجدار مكتبة تمتد من الأرض إلى السقف ... ليس الممشى آمناً بقدر ما كنت أظن . ففي حال انفجار داخل البيت قد تنهار الكتب كلها

فوقي وتقتلني ... اما البقية الباقية من الجدار فيغطيها ملصق (بوستر) فيه صورة خضراء كثيفة الأشجار .. وكان بوسعي ان أخطو إلى داخل اللوحة . هاربة إلى الغابة الاوروبية من جحيم عالمي ، وكان بوسعي ان اتسلق الاشجار وألتحف بالضباب وأنام قليلاً ... لكنني لم أفعل . لقد علمتني الحياة ان الهرب من انتمائي الحقيقي لا يجدي . انا ابنة هذه الأرض ، ابنة هذه المنطقة العربية المضطربة حتى الغليان ، أنا ابنة هذه الحرب .. هذا قدري .. تعلقت عيوني بالرف الذي يضم كتبي التي ألفتها و شرات من الكتب التي ترجمتها على طول عشرة أعوام من العمل في دار النشر الثورية ووجدتني اهمس : وانا أيضاً قد شاركت في صنع هذه الحرب ... صحيح انني لم احمل سلاحاً قط . صحيح انني مذعورة كأي جرذ في دكان بائع الحيوانات الاليفة ، ولكن كانت سطوري تحمل دائماً صرخة من أجل التبديل ... صرخة من أجل مسح البشاعة عن وجه هذا الوطن وغسله بالعدالة والفرح والحرية والمساواة ... وكل ما يفعله المقاتلون هو انهم ينفذون ذلك على طريقتهم .. انها حروفي وقد خرجت من داخل الكتب لتتقمص بشراً ، يحملون السلاح ويقاتلون .. اكنت حقاً أريد ثورة بدون دم ؟ أجل ... مثل كل الفنانين أنا متناقضة ... أريد الثورة ولا أريد الدم ... أريد الطوفان ولا أريد الغرقى ..

ها قد عدت إلى معزوفة تأنيب الذات ..

– ولكن هذه مجرد كوابيس لا ثورة .

– كل الثورات تولد هكذا معمدة بالدم .. حتى ولادة طفل لا تتم إلا معمدة بالدم ...

– ولكن عدداً كبيراً من الأبرياء والعزل يموت .

– لا أحد بريء في مجتمع مجرم ...

ما زالت انفجارات القنابل تتعالى .. ما زلت جالسة في الدهليز احتمي بجدرانه شبه المتلاصقة كرحم حجري . لم أعد مذعورة كجرذ . الكتب تحدق بي من رفوفها . وأنا احدق بالكتب ، ولا أحد يملك للآخر شيئاً . الكتب اغلفة فارغة والكلمات هربت من الصفحات لتصير رجالاً مقاتلين . اتناول كتاباً من تلك التي ترجمتها . افتحه . أجده كما حدست ، صفحات بيضاء . ان الحروف خرجت إلى الشوارع لتمارس حياتها الخاصة . صارت مقاتلين يحولون الأفكار إلى سلوك .. ما الذي يخيفني ؟

ما زالت انفجارات مضيئة تتلاحق في اعماقي وأبواب مغلقة في روحي تنفتح باباً

تلو الآخر ... ما زالت الأصوات تتعالى في داخلي ، وتتابع نقاشها داخل ذلك الصندوق الصغير المقفل جيداً المدعو دماغي ... تتلاحق الصرخات ويخيل إلي ان جدران الدهليز ورفوف المكتبة تردد اصداءها ..

– ولكن عدداً كبيراً من الأبرياء والعزل يموت ...

– لا أحد بريء في مجتمع مجرم .

– والواقفون على الحياد ؟

– لا حياد في مجتمع بلا عدالة ... لا حياد في مدينة العري والفيزون . مدينة الجوع والتخمة ... المحايدون هم المجرمون الأوائل ... الأكثرية الصامتة هي الأكثرية المجرمة ، انها ترى الظلم وتعانيه ، لكنها تؤثر السلامة الرخيصة على الكفاح الخطر النبيل ...

– بعض الناس غير مؤهلين نفسياً لرؤية الدم .

– حينما يحدقون جيداً في جرحهم الداخلي ودمهم النازف ، لا بد وان يتعلموا رؤية عدوهم ينزف تحت ضرباتهم هم ...

– من ضربك على خدك الايمن أدر له الخد الايسر ...

– بل العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم ..

– ولكن ، ما ذنب الأكثرية الصامتة الآمنة المسالمة ...

– ذنبها الصمت والمسالمة والعيش في وهم الامن ... كل عملية حياد هي مشاركة في عملية قتل يقوم بها ظالم ما ضد مظلوم ما ... الأكثرية الصامتة هي الأكثرية المجرمة ... انها تشكل إغراء لا يقاوم لممارسة الظلم عليها .. انها هي التي تثير غريزة الشر في نفوس الذئاب البشرية ... المسالمة هي تحريض على القتل ، وتلك جريمة . المسالمة هي شروع في الانتحار ، وتلك أيضاً جريمة .

– ولكنني لم أكن على الحياد . انني منحازة لطرف ضد آخر . انني منحازة للشمس والعدالة والحرية والفرح والمساواة .. وقد قضيت عمري أخدم هذه القضايا بالسلاح الوحيد الذي اتقن استعماله ..

– كان عليك ان تتقني استعمال اسلحة أخرى من أجل يوم كهذا ...

– ولكن قلماً جيداً خير من رصاصة طائشة ...

– ولكن ما جدوى القلم في دوامة النار الآن ؟ ...

— انتظر ريثما يصمت الرصاص فيعود للقلم صوته ..

— تعنين ان تجلسي في هذا الممشى المعتم كالجرذان . وحينما تنتهي الحرب تتابعين دورك السخيف : التصفيق أو التصفير من خلف طاولة مكتبك ... وحينما يدوي الانفجار تنزلين للاختباء تحت الطاولة ...

— ولكن ما جدوى ان يقتل الأدباء في الحرب ما دامت طبيعة أكثرهم لا تؤهلهم ليكونوا مقاتلين جيدين ؟ بايرون كان شاعراً عظيماً ومقاتلاً فاشلاً . وقد مات في الحرب الأهلية باليونان بعد ان كبد (فريقه) لا الفريق العدو خسائر كثيرة ... لو عاش وكتب من أجل المثل التي يؤمن بها لأفاد واستفاد بدلاً من ان يتعفن بعد ساعة من موته وتنطفىء يده التي هي مصباحه . من واجب الفنان ان يبقى على قيد الحياة كي يستمر في أداء رسالته : الكتابة ! .

— ولماذا تتمسكين بهذا المثال ؟ ماذا عن غيره من الفنانين المقاتلين ؟

— همنغواي كان مقاتلاً سيئاً أيضاً . لقد استفاد أدبه من تجربة المعركة ، اما (فريقه) فلا بد وانه دفع الثمن باهظاً من سوء استعماله للسلاح ولفنون القتال ... ولعل المرة الوحيدة التي أجاد فيها همنغواي استعمال سلاحه كانت لحظة انتحاره !

— ستجدين الآن عشرات الأمثلة لتبرير نفورك الفطري من مشهد الدم ، ومن العنف الجسدي ..

— لا أريد ان أسقط فريسة شعور بالذنب لانني لا أقاتل ... أعرف عشرات من المثقفين الفرنسيين الذين داهمهم هذا الشعور أيام الحرب الأهلية في اسبانيا وتطوعوا للقتال وكانت النتيجة انهم كانوا عبئاً على الثوار ، واحداهن (كانت شاعرة كبيرة) لم تكن تصلح في ميدان الحرب حتى لطبخ الطعام للجنود ... ان جر الفنان إلى القتال هو كجر ماري كوري من مختبرها إلى المطبخ بحجة ان البلاد تعاني نقصاً في الطباخين ! ..

— اذن ترين ان مهمة الفنان هي ان يصب البنزين ويشعل النار ثم ينسحب من المدينة هارباً ؟

— تقريباً ! ... هذا صحيح على نحو ما ... مهمته ان يخلق الثورة لا ان يمارسها ... لقد أعلن الرئيس جمال عبد الناصر ان كتاب « عودة الروح » لتوفيق الحكيم كان من العوامل الهامة التي ساهمت في تفجير ثورته والضباط الأحرار ، واشعال شرارتها ...

الفنان شرارة الثورة ونبوءتها ...

— ووقودها ! ..

— ان موته كجرذ لا يفيد أحداً ... ولكن ما يحدث عادة هو ان الفنان نوع فريد من الثوار ... انه يصنع الثورات ويجد نفسه بطريقة ما وقوداً لها لا محالة ... انه يشعلها وهو يعرف انه أول من سيحترق بنارها ... وحتى اذا لم يقتل الفنان أثناء الثورة فانه سيفقد ادوات عمله : مكتبته ومراجعه وكتبه وارشيفه وسلامه النفسي الداخلي النسبي الذي سيمزقه تماماً التشرد الجسدي ، هذا بالاضافة إلى تشرده الروحي المستمر ...

— ولماذا لا يقاتل الفنان حين تشب الحروب كأي فرد آخر في المجتمع ؟ هنالك مقاتلون جيدون ومقاتلون سيئون ، فلماذا لا يكون مقاتلاً سيئاً ؟ ان ذلك سيحميه على الأقل من الموت وحيداً ... ومن عذاب الأصوات المتناقضة في داخله ..

— لان تركيبة الفنان النفسية التي تجعل منه فناناً جيداً هي نفسها التي تحول بينه وبين ان يكون مقاتلاً جيداً ! ... لا استطيع ان اقتل اي انسان او اعذبه ... سأفكر بأنه كان ذات يوم طفلاً بريئاً . سأفكر بأنه لم يصنع من نفسه الوحش الذي هو أمامي وانما هي عوامل كثيرة خارجة عن ارادته ساهمت في صنع ذلك الوغد امامي .. سأفكر أيضاً بأمه .. بحبيبته .. سأعجز عن تعذيبه .. سأتذكر كيف قد يبدو وجهه وهو يضحك ، وهو يصلي ، وهو يمارس الحب ... سأحس بانه كوكب قائم بذاته ، وان قتله مجزرة كونية ...

أصوات ... اصوات ... اصوات ... تتفجر داخل رأسي وتتناقش بصوت عال ، ومع كل صوت أشعر بأن امرأة جديدة خرجت من داخلي ، ولم اعد امرأة واحدة في الدهليز ، بل تناسلت وتكاثرت وازدحم بنا الدهليز ، ودوى انفجار رهيب وكنت واثقة انه داخل بيتي في مكان ما ، وعدت امرأة واحدة ، وحيدة في الدهليز على الخط الفاصل بين الموت والحياة ، أواجه مكتبتي الكبيرة ، والمح عبارة « الثورة » في اكثر عناوينها .. وصرخ صوت في داخلي : هذا كابوس لا ثورة ... هذه « كوابيس سادية » لا « حرب تحريرية » ...

ورد صوت آخر : كل الثورات في التاريخ كانت تبدو من الداخل هكذا ... المهم في الثورة هو الجيل الذي سيحصدها ... لا بد لكل ثورة من جيل ضحية ...

سمعت جيداً صوت سقوط جدار ما ... اخمد الانفجار الأصوات في رأسي ... ركضت ... للوهلة الأولى ، بدا لي أن دخاناً كثيفاً يتصاعد من غرفة جدتي .. لم أكن أدري انني استطيع ان أكون شجاعة ... دونما وعي حملت (طفاية الحريق) الصغيرة وسارعت إلى الغرفة ... كان السقف محفوراً والجدار المقابل للنافذة ... في البداية ظننت قذيفة ما سقطت على السطح ، وركضت نحو المطبخ اتسلق السلم الخشبي إلى السطح ففوجئت بأن القرميد الذي يغطي سقف بيتنا سليم ولا ثقب فيه ... عدت إلى الغرفة . كانت سحب الغبار قد استقرت على الأرض والأثاث ، وحين حدقت جيداً اكتشفت ان شيئاً ما قد اخترق زجاج النافذة وثقبه دون ان يكسره مصطدماً بالسقف ومرتداً إلى الجدار وأن ما توهمته دخاناً كان مجرد غبار تساقط من السقف والجدار المشروخين ... وبحثت على الأرض فوجدت ثلاث قطع معدنية ما تزال ساخنة ، واحدة منها مدببة ، وكانت بصورة عامة صغيرة واذهلني أنها قادرة على إحداث هذا الخراب كله ...

حينئذ فقط لاحظت ان ركبتي ترتجفان كأنهما انفصلتا تماماً عن جسدي ورغباتي . وركعت على الأرض ودفنت وجهي بين يدي وبدأت أبكي ..

* * *

كابوس ٣٦

أكره صوتي حين أبكي ...

يبدأ دماغي بالعمل فوراً ضد ضعفي وبملاحقة عناصر جسدي المتمردة . قررت : اعصابي متعبة لانني لم آكل شيئاً .

دخلت إلى المطبخ . اشعلت نار الغاز وكانت يدي ترتجف حتى انني احرقت أحد اظافري ... لقد اشتعل بسرعة عجيبة وفاحت رائحة خاصة . لم اشعر بأي ألم لكنني غرقت في ذعر مروع .. كم الجسد البشري قابل للالتهاب بسهولة ! وحينما كسرت البيضة في المقلاة أذهلني ان بياضها كان وردياً وأن صفارها كان من الدم ... لم تكن حواسي تخدعني . كانت البيضة مليئة بالدم ... قد تكون للأمر تفسيرات علمية لكنني واثقة من انه حتى الدجاج في مدينتنا لم يعد يبيض من الرعب . صار ينزف !

صار البيض قطعاً من الدم المخثر ...

ومع ذلك أكلت . وابتلعت فطوري الدامي دون تذمر . كانت إرادتي قد امسكت

بمراسي من جديد . وكنت اعرف معنى ارادتي .

(كنت في الرابعة عشرة من عمري حين امسكت بالابرة وبيد لا ترتجف ثقبت شحمة اذني . اليمنى أولاً . ثم اليسرى . شعرت بألم خارق . لكن يدي لم ترتجف . ولم اتردد في ثقب اليسرى بعدها بثوان ، حتى قبل ان تهدأ ضربات قلبي واندفاع الدم إلى رأسي لشدة الألم . كنت قد وضعت الابرة بالنار وعقمتها . ولم اربط في ثقب أذني خيطاً ريثما يلتئم الجرح ، بل عقمت القرطين الذهبيين الصغيرين وتحليت بهما فوراً. تألمت أياماً ثم شفي الجرح . ومن يومها تعلمت تلك القوة الجبارة في أعماق كل انسان المسماة الارادة ... ربما كانت مأساتي أنني طالما استعملت ارادتي ضد رغبات قلبي حتى صار العداء بينهما مستحكماً ! ...) ...

* * *

كابوس ٣٧

بعد وجبة الدم المختثر ، قررت (إرادتي) ان عليّ ان أتابع حياتي (العادية) كي لا أصاب بالانهيار والجنون ... العمل أولاً . كتبت مذكراتي ، ثم تذكرت ان اليوم هو الاثنين وعلي ان اكتب (عمودي) الاسبوعي للمجلة التي اعمل بها . كان الرصاص مستمراً ، ولكنني حين امسكت بالقلم وجلست على الأرض بالقرب من طاولتي « اي تحت الطاولة !) لأكتب ، ازداد اطلاق الرصاص شراسة وضراوة .. كأن المعركة تدور بين قلمي والرصاص .. كأن كلاً منهما يتحدى الآخر ... كأنهما مصارعان في إحدى حلبات روما القديمة .. ربما كنا ، هم وانا نعمل لهدف واحد في وقت واحد .. انا اكتب ، وهم يطلقون الرصاص ، لاجل هدف واحد .. ربما كان كلانا يحارب على طريقته ولكن للاسباب ذاتها .. ومع ذلك احسست بأن القلم والرصاصة هما في أفضل الحالات كالأخوة الأعداء ... كان من الصعب ان يركض قلمي براحة بينما الرصاص يدق مساميره داخل جمجمتي .. ولكنني صرت اكتب واكتب ، واشعر بأن الكتابة تحيطني كدرع ، وتصفحني ، وتجعلني قوية مثل صخرة عتيقة تواجه العاصفة ، وبعد قليل لم أعد اسمع صوت الرصاص وانما فقط صوت قلبي وضميري وصرخة اعماقي على الورق البريء . وكنت اكتب بحرقة عن حكامنا الذين يحاولون مداواة السرطان بحبة اسبرو .. عن تلك الطبقة الفاسدة التي تظن الوطن حقيبة تستطيع ان تحمل فيها ثروتها

وتهرب ... ولم أعد احس بشيء ، غير انني اكتب ... واكتب .. واكتب ... انتهيت من الكتابة وكان ألم حاد قد بدأ يخترق رأسي ... كان التركيز مهمة مروعة وسط حرب الشوارع التي لا بد انها تدور حول بيتي ..

ووجدتني انفجر ضاحكة ... لقد كتبت مقالي ولكن كيف أوصله إلى المطبعة ، وانا عاجزة حتى عن فتح نافذة ؟ ..

تذكرت الأساطير ... سأربط المقال بشعري الطويل وادليه من النافذة ، وسيأتي فارس على حصان لا يخترقه الرصاص ، وسيتسلق جدائلي حتى نافذتي ، ليسألني اذا كنت بحاجة إلى شيء ثم سيعاود هبوطه على جدائلي ليفك المقال ويطير به إلى المطبعة ... ووجدتني أضحك . الحصان الذي لا يخترقه الرصاص في عصرنا هو المصفحة ، ولكن مصفحات هذا الوطن الحزين لا تستطيع ان تتولى مهمة ساعي البريد ... والتاكسي معاً ! ..

وتذكرت طاقية الاخفاء ...

لعل الذي اخترع فكرتها لم يكن يفكر بظروف كاتبة في حرب أهلية .. كانت ، دونما شك أغراض أخرى .. ولكن ، لو كنت املك « طاقية الاخفاء » لارتديتها ولخرجت دون ان يقوى اي قناص على إيذائي أياً كان المنظار الذي يستعمله .. ولكن .. من يدري ؟ لعلهم اخترعوا فيما اخترعوا مناظير بأشعة أكس تضبط حتى لابسي « قبعات الاخفاء » .. وذهبت إلى غرفة نومي ... وبدأت أجرب امام المرآة قبعاتي واحدة تلو الأخرى ، وكلما ارتديت قبعة توقعت ان تكون هي المنشودة وان تختفي صورتي عن المرآة ... ولم يحدث ذلك .. اذن لا املك طاقية الاخفاء ! ..

وتذكرت أيضاً حكايا الساحرات اللواتي يتحولن إلى خرفان او قطط سود . لو كان بوسعي ان اتحول إلى كائن آخر ، إلى اي مخلوق من مخلوقات الطبيعة إلا صورتي الآدمية لنجوت .. ولكنني تذكرت ان القناص عدو الحياة بكل صورها ... الم يطلق النار البارحة على الكلب المسكين ؟ ترى هل كان ذلك الكلب آدمياً سجيناً مثلي حول نفسه وبدل صورته متقمصاً جسداً آخر ، ومع ذلك لم ينجه سحره من القناص الرهيب ؟ ..

تخيلت رأس القناص ، له عين واحدة فقط في منتصف جبينه مثل غيلان الأساطير وله جسد انسان آلي مثل غيلان العصور الحديثة ! ! ..

كيف اوصل مقالي ؟ ..

ورن جرس الهاتف . وكان يحمل إلي الجواب عبر صوت الصديقة بلقيس .

* * *

كابوس ٣٨

كأني سجين زندا ... كأني الكونت دي مونت كريستو وهو يقرع على جدار سجنه ليفهم جاره السجين صرخته ... كأني كل أولئك الذين صار تواصلهم مع العالم الخارجي يحتاج إلى مجهود خارق ومبتكر ... كأني فراشة سجينة في شرنقة من نار ..

وأنا أملي مقالي الأسبوعي على الصديقة بلقيس كانت اسلاك الهاتف التي تصلنا هي جدران سجن الكونت دي مونت كريستو ... لكنه كان يقرع الجدار في دنيا من الصمت .. أما أنا فكان علي ان أصرخ باعلى صوتي كي تسمع بلقيس ما اقوله وتنقله على ورقة أمامها بخطها (الهيروغليفي) الشهير ... كان صوت الرصاص عالياً جداً ... كانت معركة ما تجري دونما ريب في الشارع تحت النافذة . كأن الرصاص يريد ان يقطع اسلاك الهاتف واسلاك التعاطف والمشاركة ..

حين كتبت ذلك المقال لم أكن قد قطعت الأمل نهائياً من إمكانية إيصاله إلى المطبعة .. اما الآن . وانا أمليه عليها لتتولى إيصاله عني . فقد لاحظت انه سيكون علينا بعد اليوم ان نختصر .. ان نكتب البرقيات لا المعلقات .. طوال خمس واربعين دقيقة ظلت بلقيس تكتب . كنا نضحك أحياناً بمرارة حين يعلو الرصاص إلى حد يجعل حتى قرع الجدران والأسلاك وسيلة مستحيلة ... انتهت المخابرة .

تخيلت بلقيس حمامة بيضاء زاجلة ، تطير في سماء بيروت الملوثة بجنون الدمار : تطير إلى المطبعة حاملة رسالتي ... صليت من أجل اجنحتها البيضاء ومنقارها الذهبي ... صحيح انها تقطن في حي أكثر أماناً (نسبياً) . لكن مجرد الخروج إلى الشارع في بيروت مغامرة . بعد ان صارت (الأحياء) تسمى ببساطة (جبهات قتال) .. ووجدتني أفكر جدياً « بالحمام الزاجل » وسيلة لنقل المقالات والرسائل والخطابات اذا دامت الحال على ما هي عليه ... وتخيلت أهل بيروت جميعاً يتخلون عن قططهم وكلابهم وهواتفهم وسياراتهم ويربون الحمام الزاجل ...

أيها المسلحون .. اذا شاهدتم حمامة بيضاء الجناحين ذهبية المنقار . خضراء العينين .

تطير صوب مطبعة (بالزيدانية) وفي فمها رسالة ، لا تطلقوا النار عليها .. فهي صديقتي بلقيس !

* * *

كابوس ٣٩

من جديد ، عاودني ذلك الاحساس الغامض بالخطر ... بأن حضوراً حاراً قد اخترق الغرفة .. شعرت بشيء حار يمس أذني اليمنى ثم يصطدم بالجدار خلفي بينما يتكسر زجاج ما ... هذه الأمور تحدث بسرعة ، بسرعة مذهلة ... بعدها بقليل أدركت ان رصاصة مـــا قد مرت بي جارحة طرف أذني ، مصطدمة بالجدار خلفي . الغريب انني لم أكن أشعر بأي ألم ، فقط بشعور حار جـــداً في جسدي كله ... بيقظة في كل خلية وجارحة من جوارحي ، وانتعـــاش فاجر ... لم أفهم المعنى الحقيقي لما حدث إلا حينما شاهدت بضع قطرات من الدم على يدي .. كانت الرصاصة قد اصطدمت بالجدار ، ودخلت بالضبط في شهادتي الجامعية (المبروزة) داخل إطار فضي ومزقتها عند عبارة : « نشهد بأن ... تحمل شهادة كذا وكذا في الأدب » ... بعد ان كسرت زجاج الاطار ..

وقفت أحدق مذهولة . كأن الرصاصة تريد ان تقول لي شيئاً . كأنها اختارت عمداً مسح (مواصفاتي) العلمية التي اباهي بتعليقها على جداري ... كأنها دعوة لي لحمل (شهادة) من نوع آخر قبل فوات الأوان ... الشهادة المطلوبة حالياً للبقاء هي شهادة القدرة على القتل والإبادة ... شيء آخر أذهلني في الرصاصة هو أسلوبها في الحركة ... تلك السرعة الخرافية التي يتم الأمر بها ... بل انني شعرت بالنار تستعر في اذني قبل ان أعي ان رصاصة تسللت ... وقدرت ان جميع الذين يموتون مقتولين بالرصاص لا يعون ان ذلك قد حدث لهم ، فهم يموتون بأسرع مما يعمل الدماغ لتعميم (بلاغه) عن الحادث !

* * *

كابوس ٤٠

دقائق ، ثم زاولني الحس بالدفء والانتعاش الفاجر في جسدي كله .. بدأ الجرح يبرد ، ومع البرد يأتي الألم والهبوط ... كان جرحاً بسيطاً عابراً ، لكنه كان أيضاً انذاراً جديداً بمدى هشاشة الجسد البشري المسكين الذي اخترعوا له أدوات التدمير

هذه كلها ... حزنت ، لا لانني مجروحة ، بل لانني قابلة للجرح ، وللقتل ، هكذا بكل بساطة ، ودونما اي مبرر .. لو مرت ذبابة في لحظة دخول الرصاصة مثلاً ، وأزحت رأسي بضعة سنتيمترات عنها ، لدخلت الرصاصة في منتصف جبيني ، ماسحة معها ذاكرتي ودنيا من الحب وعوالم من المخاوف والآمال تسكن ذلك الصندوق الصغير كعلبة سردين ، المسمى دماغي !! ..

امسكت بالرصاصة ، ووضعتها إلى جانب قلمي . (ضع رصاصة إلى جانب القلم ، تجد أن القلم أكبر حجماً) .. ولكن هذه الرصاصة بالذات ، بدت لي للوهلة الاولى معادلة لطول قلمي .. ثم كبرت فصارت عموداً من نار ، في حين ارتجف قلمي أمامها ونحل ، فصار مثل ريشة طائر مجروح ... لا حيلة لها أمام عاصفة النار ...

* * *

كابوس ٤١

هدأ الرصاص قليلاً ... وكما في كل فترة هدنة (تدوم عادة حوالي ربع ساعة) سمعت نداءات الرجال دون ان أفهم بالضبط ماذا يقولون .. قدرت انه يجري استبدال المقاتلين المتعبين بآخرين ... سيذهبون ليناموا وقد يحدثون حبيباتهم القلقات على الهاتف او يمرون بهن ... أما انا فحبيبي قد مضى إلى الأبد ، والنوم لم يحتلني جيداً منذ ليال ثلاث .. هذا هو الشيء الوحيد الأساسي الذي يقلقني . من لا ينام جيداً لا يفكر ولا يتصرف جيداً ، واذا اختار ان يموت او ان يهرب فستكون غرائزه هي التي تختار ... وأكره لغرائزي ان تقرر مصيري ...

أصوات نداءات المقاتلين تؤنسني ... وحين تغيب يسود صمت متوتر مروع أعرف ان الانفجارات آتية بعده لا ريب فيها ... وريثما تبدأ ، ... يعلو صوت كائنات دكان بائع الحيوانات (الاليفة) ... اسمعها بوضوح تصرخ في اقفاصها ، تجوع ، تخاف ، تتساءل بحيرة عما دهى صاحبها الذي طالما اعتاش من بيعها ثم هرب إلى مكان آمن حين حاق بها الخطر ... اسمع صوتها يتحد وهمهمات سجناء الحي من الأسر (الاليفة) ويصير كورساً واحداً ، مثل كورس اغريقي في مسرحية تروي حكاية مدينة ضربها طاعون الجنون ...

وشعرت برغبة عجيبة في التسلل إلى الدكان ، ومشاهدة كائناتها ... اقنعت نفسي

في البداية بالذهاب لاطعامها وإنقاذ حياتها ، ثم كان لا بد لي من الإعتراف ! لست ذاهبة لانقاذ حياة أحد . ولا أدري أية جاذبية تشدني اليها ... ربما كان هو الفضول ، أو (وحدة المصير) التي تربطنا .. أو الحاجة إلى الاستئناس بها أنا الوحيدة الغريبة في عالم البشر – الذئاب ... ثم انها (بيت الجيران) الوحيد الذي استطيع التسلل اليه بسلام بالاضافة إلى بيت العم فؤاد ... قررت ان احمل لها شيئاً من الماء على أية حال ، والانتظار حتى يحل الظلام ..

لم أكن أدري أن (منظار) القناص المعاصر كعيون البوم ... ترى في الظلام ! ..

* * *

كابوس ٤٢

رن الهاتف . ركضت على أمل ان يكون أخي . الصقت السماعة جيداً بأذني ، فشعرت بألم خارق في جرحي الذي كنت قد نسيته .. وشعرت بألم أيضاً لأنه لم يكن أخي ! .. كانت صديقتي مريم ، تسأل عن أحوالي ، وتعتذر عن أحوال أختها سلوى المصرة على رقص الدبكة حتى في هذه الأيام ... قلت لها أن أختها معذورة . انها ما تزال مراهقة وطفلة . ولكن المجرمين الكبار هم المصرون على رقص الدبكة فوق جثثنا منذ نصف قرن دون ان تتبدل وجوههم .. وان تبدلت فان الأبناء يرثون (مملكة) الآباء متقمصين عقلياتهم العثمانية المتعفنة عتقاً ، وعصورهم وسلوكهم ... وهكذا لا أحد يموت غير الشعب ... لا يوجد شيء اسمه (الشعب البريء) ... شعبنا مجرم بحق نفسه حين ارتضى حمل جلاديه على اكتافه عشرات السنين ..

قالت مريم بصوت مليء بالقناعة : أما أنا فقد حملت السلاح لاقاتل . ولن أعود إلى العمل الصحفي الآن . القلم عنين في مواجهة ظروف كهذه . لماذا لا تنضمين الينا ؟

* * *

كابوس ٤٣

ارى الخروف يحمل جلاده على كتفيه ، ويمضي به إلى المسلخ . يغسل السكين . يعطيها للجلاد . ينحني ويقبل قدميه . ثم يركض ويمد له عنقه كي يقطعه ! ... وحينما يمسك الجلاد بالسكين ليجز عنقه ، يبتسم له الخروف ويقول له : « اتمنى ان أكون وجبة طيبة لك يا سيدي . باسم العشائرية . باسم الطائفية . باسم الجهل . باسم ما ورثته

عن أجدادي من قيود أحلل لك أكل لحمي » .

ارى المحكوم بالشنق ، يسير وجلاده . تمطر . يحمل المحكوم جلاده على كتفيه كي لا تتسخ قدماه بالوحل . ارى المحكوم ينصب مشنقته بنفسه . يقطع شجرة من بستانه ويحول بنفسه اخشابها إلى مشنقة . يدقها بمسامير انتزعها من سرير عرسه . يأتي بالحبل من أرجوحة أطفاله . يعلق الحبل . يحيط به عنقه .. الجلاد نائم . ينتظره حتى يستيقظ كي لا يزعجه ، ثم يقول له : « سيدنا انا جاهز للشنق . (يا بيك انا زلمتك) ! » .

* * *

كابوس ٤٤

ما تزال مريم تعتذر عن اختها التي ترغب برقص الدبكة .

(اراهم هناك يرقصون الدبكة فوق التلة المشرفة على بيروت التي تحترق ... مرة كان أحدهم ما يزال يباهي بسيارته الفخمة ذات النمرة الزرقاء ، (اي انه من مجلس النواب !) . وذهلت حين شاهدت نمرة سيارته ... كانت من الذهب الخالص !! ... كانوا قد بعثوا بي اليه لاجراء حديث صحفي .. وكان فخوراً بفكرته الجديدة لاستعراض (قوته الشرائية) ... فالزوجات المسخرات لعرض القوة الشرائية للازواج على أجسادهن ، ابتداء من ارتداء معطف الفيزون وانتهاء بالخواتم الماسية ، صرن (موضة) قديمة . الشاليه الشتوي في الأرز ، والشاليه الصيفي على البحر ، واليخت في نادي اليخوت ، كلها صارت وسائل (مبتذلة) لاستعراض الثراء والجاه .. وهو رجل ذكي (مبتكر) ... وها هو يبتكر فكرة الصاق لوحة من فضة عليها أرقام سيارته بحروف من ذهب وعما قريب تقلده فئة الأثرياء اي ان سيارات حوالي اربعة بالمئة من الناس هنا ستحمل هذا الاعلان الجديد عن الاثراء . غضبت ، ولانني اغضب بصمت يظنني الناس مذهولة ... سره كثيراً أنني ذهلت . كان هذا غرضه من الفكرة .. بل انه كان قد اعد محاضرة خاصة بهذه المناسبة يلقيها على « المذهولين » . قال لي : « وماذا في ان أضع لوحة ذهبية لسيارتي ؟ انها لا تكلف مبلغاً كبيراً . اي رجل متوسط الحال يستطيع تنفيذها . ثمن كيلو الذهب حوالي ١١ الف ليرة لبنانية ، وهو ليس بالثمن الباهظ لرجل يحب الجمال في كل شيء ... ثم انني انفقت مثل هذا الرقم ثمناً لزجاجة نبيذ معتق نادر شربتها ليلة البارحة ، واصابتني بصداع هذا الصباح ! .. » .

كنت ارافقه إلى مزرعته حيث اختار ان (نجري) الحديث الصحفي كي يتسنى له ان (يتصور) مع خيوله واحصنته وبين رجاله وازلامه وكلاب صيده ... توقفت السيارة أمام إحدى شارات المرور ... هاجمتنا قبيلة من المتسولين والجائعين الذين أثار جنونهم مشهد الذهب على لوحة السيارة ... كانوا يصرخون به من أجل (حسنة لله) ... وكانت صرخاتهم تهديداً لا تسولاً .. قدرت أنهم في الجولة القادمة سيمرون بالسيارة وصاحبها زوبعة من نار .. لكنه لم يلحظ ذلك وانما تابع حديثه عن عظمته الشخصية وأمجاده ...

في مزرعته ، وقف أمام الكاميرا وقد شد عضلاته المهترئة العجوز وابتلع كرشه قدر الامكان ، وبدا لي جسده (الرياضي) الاثري مثل دولاب سيارة نصف منفوخ ... لكن (زلمه) احاطوا به وقد رفعوا اسلحتهم بكل فخر وقد صوبوها نحو الكاميرا ... كانت رقة الحال والفقر الفكري واضحين على وجوههم ... وكدت أصرخ بهم : أيها الحمقى ... انكم تصوبون نحو الهدف الخاطىء ... ايها الحاملون جلاديهم ، غيروا هدف البنادق .. تنفتح لكم دنيا جديدة) ..

انهت مريم مكالمتها واعتذارها الرقيق . هكذا نحن في هذا الوطن . نعتذر عن القشة ونمر بحياد أمام الخشبة التي تقلع عيوننا ! ! .

انتزعت سماعة الهاتف عن أذني ... كان الألم قد صار حاداً ..

* * *

كابوس ٤٥

اكتشفت انه ليس في بيتي شاش معقم ولا (سبيرتو) للتطهير ، فقط دواء أحمر (ميركر كروم) وبعض القطن .. بدل الكتب التي انفق عليها نقودي كلها كان علي تزويد البيت بأدوات مستشفى كامل التجهيز ! ! ... وبدلاً من السيارة المخلوعة الأبواب كان عليّ الادخار لشراء سيارة مصفحة تنغلق علي وتحميني كالدرع .. وبدلاً من البيت كان علي أن أسكن ملجأً ذرياً . وبدلاً من شهادة « الأدب » الجامعية كان عليّ ان أحمل شهادة من مدرسة (عسكرية) ...

وقفت امسح جرحي ... كان طفيفاً جداً وسطحياً . وقدرت أنها ليست أذني هي التي تؤلمني ... بل آذان أخرى .. اغمضت عيني كي أرى جيداً ...

شاهدتهم وقد شربوا من النبع المسمم بمسحوق الجنون ... شاهدتهم يقطعون أذني

بائع الصحف الذي كان يقف أمام بيتنا كل صباح كي يبيع أقساطه المدرسية كل مساء .. شاهدت الآذان تتقطع في كل زاوية معتمة بالمدينة .. شاهدت النار والسكاكين ترسم على الأجساد رموزاً من المفروض أنها رموز دينية ... أي إله هو هذا الذي يرضى بأن يدق اسمه بالمسامير في الجماجم ويحفر بلهيب (لحام الاوكسجين) فوق أجساد العباد .. اذهبوا إلى الكنائس والجوامع وإلى شاطىء البحر وسافروا إلى اعماق الكون واسألوه هل يرضى ؟ شاهدت الآذان تتكوم في الشوارع أمام الأبواب وتسدها مثل أكوام الثلج في الشتاء .. شاهدت العيون المفقوءة تعوم فوق فنجان القهوة الذي أعده ... شاهدت أشلاء الأجساد الممزقة تنهال على الشوارع وتتكوم تلالاً أكثر ارتفاعاً من القمامة .. شاهدت السيقان المقطعة تركض هاربة من دون أجسادها ... شاهدت السواعد المقطعة تلوح في الدروب بلا أجساد حاملة الأعلام البيض أو مادة أيديها بحثاً عن طوق نجاة ... شاهدت الأصابع المقطعة تعوم في الشوارع الفارغة متجهة بالاتجاه نحو جلاديها ... شاهدت رجالا سحبت الدماء من عروقهم لتنقل إلى سواهم يركضون جثثاً مزرقة .. شاهدت رجالاً بلا رؤوس يركضون على أرصفة هذا الوطن الحزين بحثاً عن رؤوسهم التي تم جزها في ليلة مظلمة ... شاهدت الرؤوس الممسوحة الملامح لشدة التعذيب ، الرؤوس المقطوعة تعوم فوق بحر الدم والظلمة باحثة عن ألسنتها التي انتزعت بالكماشات من داخلها ... شاهدت الخارجين من أفران التعذيب والنار وهم يركضون مشتعلين ورائحة اللحم المحروق تفوح .. شاهدت المدينة تستحيل مرجلاً من مراجل الساحرات ويغلي المرجل ويغلي ويدور ويدور بكل ما يحويه في دوامة من الزعيق الدامي .. والرصاص يخترق كل حنجرة تريد ان تقول شيئاً غير منطق الرصاص ... شاهدت الفقراء يموتون . الفقراء الأبرياء وحدهم ماتوا ، الجزارون هربوا من مدينة الكوابيس والجنون إلى كباريهات باريس ولندن وجنيف .

وشاهدت حبيبي يطلع إليّ من المرجل ... يجيئوني بجسده المثقوب بالرصاص كالمنخل .. وأضمه إلي واصرخ به : ما زلت أحبك ...

* * *

كابوس ٤٦

آه كوابيس كوابيس ...

تنبت داخل رأسي وتتسلق جدران دماغي كنبات اسطوري شرير ..
آه كوابيس كوابيس ...
تتفجر داخل رأسي (ام تراها تقع خارجة أيضاً ؟) ... كنت في البداية أراها حين أغمض عيني — خصوصاً بعد قراءة أكوام الصحف العتيقة للاشهر الأخيرة — منذ بدأت الحرب — كوابيس تهاجمني من وقت إلى آخر كالجراد الموسمي ... الآن أراها باستمرار ... حتى وانا مفتوحة العينين ... وحين أقف أمام المرآة .. أرى النمل يخرج من فمي وانفي وعيوني ويأكلني كما لو كنت قد مت منذ زمن طويل ... اليوم تمنيت لو أرسم بالكحل خطاً فوق عيني لكنني فوجئت بأن رأسي تحول إلى جمجمة عظمية ... ثم لم أعد أرى نفسي في المرآة ، وانما سحابة من النار والدخان ... وصغرت حتى صرت بحجم ذبابة وكبرت المرآة فصارت مثل ستارة شفافة لمسرح مجنون ومددت قدمي فدخلت إلى المرآة .. وتجولت داخل المرآة ، وفيها ، شاهدت حقلاً شاسعاً أغصانه من البنادق ، وشاهدت الرجال المقنعين يقطفون البنادق عن الأشجار ... ويلملمون الرصاص عن الأرض كما لو كان أكواماً من الثمار الناضجة ... وكانوا يصهرون حديد المحاريث والمعاول والمناجل ويحولونها أيضاً إلى رصاص .. رصاص كثير كثير .. كانت بيادر الرصاص تمتد إلى ما لا نهاية ... تذكرت القمح والصيف والبيادر ، وجلستي على اللوح الخشبي الذي يجره البغل فوق القمح في البيدر ، وكان البغل يدور والسنابل الذهبية تضيء تحت أشعة الشمس ... وانا مصرة على الاستمتاع بذلك الركوب الأسطوري في حقل البركة ، واغاني الفلاحين تمتزج مع شهقاتي الطفولية . هذه المرة ، كانت البيادر مغطاة بالبارود ورائحة الغضب ، والسماء حقلاً من الحديد الصدىء ... والغناء ؟ لا غناء . فقط صيحات الويل والثبور و (صغائر الأمور) ! ...
وخرج الرجال من حقل الجنون حاملين معهم موسم صيف بيروت ٧٥ المر ، وحصاد الدم ...

* * *

كابوس ٤٧

حمل الأب لطفله هدية في عيد ميلاده . كانت الهدية ملفوفة بشريط ذهبي وعلبة زاهية الألوان . فتحها الطفل بفرح . وجد بندقية . سكت . سأله

أبوه : ألم تعجبك البندقية ؟

ــ كنت اريد دراجة لاركب بها على (اتوستراد) قوس القزح ، ولأكتشف دروب ألوانه لوناً لوناً .

في عيد ميلاده الثاني جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل متلهفاً فوجد فيها مدفع هاون صغيراً ... سأله أبوه : ألم يعجبك المدفع ؟

قال الطفل : كنت أريد طائرة من الورق لأركبها وأطير بها مع الطيور والعصافير ...

في عيد ميلاده الثالث ، جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل فوجد مسدساً . قال له أبوه : هذا أحدث أنواع المسدسات . طلقاته تنفجر كالقنبلة . ألم يعجبك ؟

قال الطفل : كنت أريد غيتاراً أعزف عليه لشروق الشمس وموج البحر وفراشات المحبة ..

في عيد ميلاده الرابع ، جاءه أبوه بهدية . فتحها الطفل فوجد قنبلة يدوية . سأله أبوه : هل اعجبتك . انها كافية لقتل قبيلة .

تبدلت ملامح الطفل . وانتزع الصمام فوراً ، وقذف بها أمه وأباه ، وانفجرت ، وقتلوا جميعاً ، وتداعت اركان البيت .

لم يسأل الجيران ماذا حدث . كانوا يعرفون ، فقد كان الأمر نفسه يحدث في كل بيت تقريباً ..

بحث الأحياء القلائل المتبقون ، عن صانع التوابيت الذي ازدهرت تجارته في الأشهر الأخيرة ... أدهشهم انهم لم يجدوه في دكانه ... بحثوا عنه في كل مكان ، وأخيراً وجدوه جالساً على شاطىء البحر ..

ــ ماذا تفعل يا صانع التوابيت ؟

ــ انتظر البضاعة ؟

ــ ما هي بضاعتك يا صانع التوابيت غير صنع التوابيت ؟

ــ لقد افتتحت فرعاً لبيع لعب الأطفال ! ..

ووصلت الباخرة المحملة بلعب الأطفال ، وانزل العمال منها صناديق كثيرة محملة بالمسدسات والرشاشات والقنابل والبنادق !! ..

* * *

كابوس ٤٨

أتذكر ...

(كان السلام الربيعي يهيمن على تلك الضاحية في إحدى المدن اللبنانية ، بينما كنت افتش عن مكان قيل لي انه سيكون مركزاً لانشاء جامعة ، كنت في مهمة صحفية للكتابة عن الجامعة ــ الحلم ، وكنت كالعادة ضائعة بين طرقات اجهلها وكان ضياعي يمتعني ما دامت الدرب جميلة ترقص فيها الحياة بكل ألوانها المتجددة الغضة ...

سمعت صوت اطلاق رصاصة ...

بدا صوت الرصاص نشازاً في هذه الحقول المتفجرة حياة وتجدداً ... رصاصة ثانية ... وثالثة ... وانهمر الرصاص وكان صدى الطلقات يطول ، كأنها ترتد بشراسة عن كل غصن أخضر ، عن عيون الخرفان والطيور والسحالى والقطط وجميع كائنات هذه الطبيعة المذهلة ... وكنت ما أزال ضائعة افتش عن مقر الجامعة ــ الحلم ... وفوجئت بهم ... خمسة من المسلحين ، يلعبون بمسدساتهم ... بعضهم يقذفها في الهواء ثم يعيد التقاطها كما يفعل رجال السيرك بكراتهم ... سألوني : عم تبحثين ؟ . رجوتهم ان يزيحوا الأنابيب السود الموجهة إليّ المحملة برسل الموت ، فضحكوا بجذل لخوفي من السلاح ... قلت لهم ابحث عن مقر الجامعة التي يشاع انها ستؤسس هنا . سخر مني احدهم . الآخر الذي سألني عن اسمي والمجلة التي اعمل بها لم يسخر ، وانما أشار بفوهة مسدسه إلى الدرب التي علي ان أسلكها . لاحظت ان في يده الاخرى عصفوراً صغيراً مجروحاً . سألته بالمقابل عن اسمه وعمله . قالوا انهم حراس (....) الشخصية الهامة .

قلت : لماذا تطلقون الرصاص ؟

ــ الافندي في زيارة ونحن نتسلى ! ... ولكن العصافير قليلة كما ترين .

اذهلني ان يكون هنالك من يستطيع ان يتسلى بالقتــل ، حتى ولو كان القتيل عصفوراً ...

ظللت طوال النهار حزينة ... لم أكن أدري ان موسم الصيد المقبل ... لن تكون أهدافه العصافير .. وانما .. نحن ! ..)

* * *

كابوس ٤٩

لم تقل المرأة لزوجها شيئاً ، لكنه نهض من الفراش مع الفجر وفي قلبه حسرة عميقة.. كل هذه العضلات التي يملكها ، كل هذه القامة الفارعة ، و (الشارب) الصالح لوقوف الصقر ، وشعر صدره المنبوش ، كل هذه المظاهر الخارجية لا تجدي شيئاً في معركته مع ... جسدها ..

تلك المرأة الطرية الصغيرة السن التي أضافها إلى زوجتيه السابقتين ، ما يزال عاجزاً عن احتلال قلاعها البضة .. خمسة عشر يوماً ، ويده التي تضرب رؤوس الخرفان لتذبحها بضربة واحدة ، تتراخى أمام جسدها كما يتراخى كل عضو فيه ... لا يدري ماذا دهاه ... صحيح انه في السابعة والأربعين ، ولكن والده تزوج امرأته الخامسة حين كان في الستين .. ما يزيد في عذابه هو صمت الصغيرة الفقيرة — الأكثر فقراً حتى منه — التي (اشتراها) ... انها لا تقول شيئاً . لا تحتج . لا تفسر . لا تشكو لكنه يلمح في عينيها نظرة انثوية مروعة القسوة والسخرية ... بل أنه صار في الأيام الأخيرة ، يرى للخرفان رأسها ، فيقبل على قطعها بضربة واحدة ، وبشهية لا حدود لها ...

ذلك الفجر ، كانت مرارته تتحول إلى بركان من العنف الجسدي حتى انه فكر بأن يقطع رأسها هي شخصياً ، ويتهمها بسوء الأخلاق وبخيانته ... لكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك بعد ، فهي ما زالت عذراء ... في هذه الفوضى ، لن تجد طبيباً شرعياً يكشف على جثتها .. ولكن ، لماذا لا يطلق عليها الرصاص وهي عائدة من السوق وستلصق التهمة بقناص ما طبعاً ؟؟ . أجل .. من الأفضل قتلها في الطريق ، وستموت كما يموت الآلاف في بيروت دون ان يبالي بهم أحد ... بل ان جثتها ستبقى في موضعها أياماً وستتعفن ... لن تكون من المحظوظين الذين تضم جثثهم البرادات الحكومية ..

أيقظه من أفكاره رنين الهاتف . ان البيك الكبير يريد منه (خدمة) في (المكان الذي يعرفه) : « أمرك يا بيك . سأكون هناك بعد ربع ساعة » .

بعد ربع ساعة ، سلموه خمسة شباب لا يزيد عمرهم على ست عشرة سنة وطلبوا اليه (تربيتهم) ثم (تسويحهم) . فرح بالمهمة كثيراً . خلع قميصه . ابرز عضلاته . خلع حزامه ...

بعد ثلاث ساعات وجدت خمس جثث في إحدى الطرق الجانبية مقطوعة الرأس

وقد تعرضت لتعذيب وحشي تنطق به بقاياها ...

وعاد الجزار إلى بيته . نام جيداً كما لو أنـــه امتلك خمس عذارى واحدة تلو الأخرى ... نام من ظهيرة ذلك اليوم حتى صباح اليوم التالي ... ولم تعد زوجته الصغيرة تقلقه . كان عمله الجديد يملأ عليه (حياته) كلها ... وجيوبه أيضاً .

* * *

كابوس ٥٠

(لم تكن مفاجأة بالنسبة لي على الأقل ان يعلن أخي عن عزمه على الهجرة تلك الليلة با لذات ... ليلة عيد ميلاده ... فجميع رفاقه الذين جاؤوا كانوا مسلحين .. وكان السلاح - حديث السهرة .. وكان أخي موضع سخرية الجميع لانه لا يقتني قطعة سلاح واحدة ، والسلاح زينة الرجال ... فقال لهم : السلاح زينة الرجال لا الصبيان والخصيان والحمقى والأولاد ... وكاد يدب شجار لو لم يسارع أحدهم بالسخرية حتى من سكاكين بيتنا غير الحادة ، والقريبة من الملاعق أكثر منها من السكاكين ! ... كان أخي قد تخرج مؤخراً من إحدى الجامعات بعد ان استطاع الحصول على منحة دراسية . كان ذكياً جداً في حقله : الهندسة الالكترونية . غبياً جداً في الحقول الأخرى التي تتطلب جهداً جسدياً ... وكان يكره الأسلحة ، وأفلام العنف تسبب له قيئاً لاإرادياً ...

قال لي ليلتها : لا مكان لنا في هذه المدينة .

ـ بل هي مدينتنا وسنصمد وسنقاتل ، كل بسلاحه ...

ـ أما زلت تصدقين ان القلم أكبر من الرصاصة .

ـ أحد معارفي الفلسطينيين قال لي : المهم هو الصمود . حذار من مغادرة بيروت ..

وحين سألته : وانت هل ستغادر بيروت ؟ رد بسخرية : لن تجدي فلسطينياً واحداً يخلي بيته بعد اليوم إلا يوم العودة إلى .. فلسطين .

ويومها كف أخي عن حديث الهجرة وان كان قد ولد في وجهه تعبير ناء .. كأنه سافر وانتهى الأمر .. كأنه هاجر ولم يعد هنا) ...

ولكن ترى اين هو الآن ؟ هل خرج حقاً لاحضار طعام ، ام تراه رحل إلى الأبد ؟.. ام تراه يرقد على رصيف (الكليمنصو) القريب وفي رأسه رصاصة قناص ؟

* * *

وقف رئيس المخفر على النافذة بائساً . رغم الرصاص والمتفجرات التي تمزق كل ما حوله ، كانت قد صدرت اليه الأوامر بعدم التدخل ! ... شاهدهم من النافذة يأتون مسلحين مقنعين . شاهدهم يسرقون السيارات الخاصة بالمخفر . شاهدهم يعودون . يدخلون اليه . يجردونه من سلاحه ورفاقه . فلم يتدخل ... هكذا صدرت إليه الأوامر ... ثم لماذا يتدخل ؟؟ ولمصلحة من ؟ ومع من ضد من ؟ ... كان المهم هو ان يتوقف هذا الجنون سريعاً وإلا مات بالتسمم ...

كليته الأولى معطلة والثانية لا تعمل جيداً . انه مضطر للذهاب إلى مركز غسيل الدم في أوقات محددة ، وإلا مات بالتسمم . الأمر يكلّفه ثروة لا حدّ لها ، وهو حين ينفذ بعض الأوامر (الجانبية) لا يشعر بانه يحنث بقسمه العسكري ... فهو لم يقسم على الانتحار ... وعدم قبول هذه النقود (الجانبية) يعني الانتحار ... راتبه بائس ، وهو بائس ، وقد سر ضمناً حين جردوه من سلاحه وأراحوه من مجرد مهمة التفكير ...

ولكن ما يدور أمامه الآن يعذبه ...

منذ نصب المسلحون متاريسهم تحت نافذة المخفر تماماً وهو يشعر بالبؤس ... منذ اوقفوا ذلك الشاب الغض وصفعوه لم يتوقف صوت في داخله عن الصراخ .....

كان الشاب صغيراً وبريء العينين ، وقد رفع عينيه إلى نافذة المخفر وصرخ بايمان مطلق بالنجاة : يا بوليس .. تعال خلصني (ارجوك) ...

وكان واضحاً ان الشاب ما يزال يصدق كل ما تعلمه في المدرسة من أن الشرطي يحفظ الأمن ويدافع عن المظلوم ويلقي القبض على الظالم ... وظل واقفاً على الشرفة مشدوهاً وقد ايقظت الصرخة شخصاً نائماً في اعماقه ... وانفجر المسلحون يضحكون للنكتة ! رجل يستجير برجال الأمن !! اية نكتة !! ... وعاد الشاب ينادي الشرطي بصوت فيه كل طفولة صبي يستنجد بأبيه ... بدأوا صفع الشاب .. ضربه أحدهم بالبندقية على كتفه فسقط أرضاً وبدأ يبكي ... لكن نظراته ظلت معلقة برجل الأمن المطل من النافذة وبالعلم اللبناني نصف المحروق على المخفر ... كان لا يريد ان يصدق الكابوس الذي يراه ... ضربوه فاستحالت صرخاته إلى حشرجات لكنه ظل يصرخ : • يا بوليس ...

ووجد الشرطي نفسه يندفع من المخفر كالمجنون دفاعاً عن ... عن ما لا يدزيه تمامـــاً ...

ولم يشعر بعدها بشيء .. ولم يشعر حين نقلته إحدى المصفحات إلى براد الجثث ....

ولم يقرأ الصحف في اليوم التالي ليرى فيها صورته في عمود الوفيات !! .

* * *

كابوس ٥٢

رن الهاتف ..

ركضت كالمجنونة ... ربما كان أخي ... لم يكن هو ... كان صوتاً غريباً ، وكان الصوت يقول : طلب مني شقيقك الاتصال بهذا الرقم وابلاغك أنه في السجن ! ..

ـ في السجن ؟ لماذا ؟ ماذا فعل ؟ ...

ـ لقد القي القبض عليه بتهمة حمل سلاح غير مرخص به !! ....

وانفجرت اضحك واضحك واشهق بدموعي .. يـــا بيروت .. يـــا مسرح اللامعقول !! ...

* * *

كابوس ٥٣

ـ ولكنه مسدس أثري ... مجرد قطعة نادرة يجمعها الهواة كما يجمعون الطوابع . انه غير صالح للاستعمال ، ولا اعتقد ان رصاصته يمكن ان تنطلق .. لا ريب وان بارودها العتيق قد اصابته الرطوبة على طول ربع قرن من عدم الاستعمال ...

هكذا قال لي جارنا العم فؤاد حين سألته عن المسدس الذي زود به أخي قبل خروجه ! ... أضاف بحرارة : « انه مسدس مسكين ومضحك ... مضحك اذا قورن بالسلاح الحديث وبنادق م ١٦ ورشاشات ٥٠٠ ومسدسات كولت وماغنوم .. لقد اعطيته إياه لمجرد رفع روحه المعنوية فقط ! » ... وهنا كان لا بد من ان افضي اليه بالنبأ : أخي الآن في السجن . لقد استطاع الهرب حياً من الحي ، ونجا من المسلحين والقناصين ، ولكن القي القبض عليه ... بتهمة حيازة سلاح غير مرخص !! ...

لم يبد على العم فؤاد انه يصدق . في البداية انفجر ضاحكاً وقال أن (دمي خفيف) ! ثم بدت على وجهه امارات التعب والارهاق ، واغمض عينيه نصف اغماضة ، وبدا

انه يحاول ان يتذكر بيتاً من الشعر ... واستطاع التقاط أول الخيط في (المعلقة !) وصار يردد : ومن يدرك الدهر ... ومن يدرك الدهر ... وصار يكررها وقد ثقل لسانه تدريجياً ، ثم راح في اغفاءة عميقة ! ...

اتأمله . احسده . ليس صحيحاً ما يقال عن هشاشة الشيوخ . انهم كالسنديان ، يتمتعون بصلابة داخلية مدهشة . منذ البداية أعلن : لن يغادر أحد بيته ... جميع شيوخ الحي قرروا ذلك ... أما شباب الحي وشاباته فقد سقطوا في الحيرة ... ولكن الحيرة أيضاً علامة عافية ... انها علامة حياة وانفتاح على تيارات الأفكار كلها ، وتفجير للأصوات الداخلية وبالتالي لمزيد من معرفة الذات وموقعها من ذلك كله ... ما جدوى تحويل البيت إلى وثن والالتصاق به ، او إلى قبر نموت فيه موتاً جباناً كسولاً متوهمين أننا أدينا قسطنا للعلى ؟ .

في الليل حين تدوي الانفجارات يظل نائماً ، ربما ليس لانه شجاع وانما لمجرد انه ثقيل السمع ! ...

* * *

كابوس ٥٤

سرقت مذياع أمين ابن العم فؤاد .

لم اسرقه بالضبط وانما استبدلته بالترانزيستور الذي املكه . لنقل انني قمت بعملية (مبادلة ارغامية) . فمذياع أمين فيه إمكانية للاستماع إلى الموجات المحلية القصيرة ، اي إلى المخابرات اللاسلكية الرسمية بين الحكام ورجالهم ، بين قوى الأمن الداخلي وقياداتهم ، وحتى المخابرات الهاتفية بين المجهولين والمعلومين ! ... وهو لا يستمع اليها تنفيذاً لأوامر الوالد . أما انا فارغب في الاستماع اليها ومعرفة المزيد عن الحقيقة ... هكذا بررت لنفسي هذا العمل . بالاحرى قمت به براحة ضمير كاملة . كأن المقاييس الاخلاقية في زمن الحرب تتبدل تماماً . ثم انه لا يستمع إلا إلى الموجات (الشرعية) ولم اسمعه مرة يحاول ضبط الابرة على الموجات السرية الممنوع الاستماع اليها ...

أمين نسخة عن والده العم فؤاد ، رغم ان نصف قرن يفصل بينهما ، وهذا هو اسوأ ما في الأمر ... ففي زمنه ، كان العم فؤاد مناضلاً ومقاتلاً ثم رجلاً مهماً من رجالات الدولة ، ومن أبرز جوانب أهميته (الثروة) الكبيرة التي جمعها بوسائل لم تكن

لا أخلاقية جداً بمقاييس عصره ، قبل ان يتقاعد تحت وطأة أعوامه الخمسة والثمانين ...
أما أمين ، فهو نسخة عن والده ولكن كما هو الآن ! .. انه يرافقه إلى حد العزوف عن الزواج ، ويبر به إلى حد الانقطاع عن عصره ... يبدو لي ان الخيط الفاصل بين الوفاء العائلي ، والوفاء للذات وللعصر رفيع جداً ... وأحياناً يضيعه بعض الأولاد فيفقدون ذاتهم في وهم « الوفاق العائلي » ! ...

أمين مثلاً لا يستمع إلى الموجات المحرمة ، فوالده لا يسمح بذلك . والده ما يزال يعتبر الدولة دولة ، والحاكم حاكماً ، وما زال يعيش في عالم ذهبي من المثل التي تربى عليها ومارسها في مرحلة ما من حياته ، لكن امين الذي يقلده ، لا يلحظ أن العصر قد تبدل ... وهذا ينطبق على كل شيء ... أما أنا فمن فصيلة أخرى ، كأنني من نسل ذلك الاعرابي الذي أكل إلهه التمري حين جاع ! .. وأمين يكرهني كرهاً سرياً كأكثر أفراد أسرتي ! . انه يحس إحساساً غامضاً بأنني « رجل الأسرة » ويصدمه ان يلحظ من خلالي ان الفروق الفيزيولوجية لم تعد بالغة الاهمية ، وان الصلابة الداخلية لا تسكن بالضرورة شاربين مفتولين .. وانها قد تقبع تحت الملمس الناعم لامرأة هشة المظهر .. وكانت (رجولتي) تتحدى انوثته ، وحريتي تتحدى استرخاءه العقلي ! .

حملت غنيمتي (مذياعه) وصعدت إلى (كهفي) في الطابق الثالث ...

السلم الطويل المليء بالنوافذ لم يضايقني كما في الأيام الأولى ... الرصاصة التي انطلقت لتحرق الجدار خلفي مرتدة إلى الأرض لم تثر ذعري كما في المرات الماضية ، وانما تابعت صعود الدرج بالسرعة نفسها .. (الالم في اذني عاودني ... صرت أشعر به كلما مرت رصاصة بالقرب مني) ما عدا ذلك تابعت صعودي ببرود . تراني بدأت اعتاد صوت الرصاص وآلفه ، ام انني أكثر إنهياراً من أن أخاف ؟ ...

هل يمكن للانسان ان يعتاد صوت الرصاص ؟ ...

* * *

كابوس ٥٥

تنفتح لي دنيا من الأسرار وانا استمع إلى الموجة القصيرة ، والتقط الأحاديث الطائرة في فضاء هذا الوطن الحزين ..

ها قد شف جسدي وصار ريحاً خفيفة ، تسري بسرعة البرق ، تتنقل بين البيوت ،

من قرية إلى أخرى ، من مكان إلى آخر .. تسمع ما تقوله امرأة لحبيبها على الهاتف ، وتنتقل بعدها بثوان إلى غرفة الحبيب لتسمع جوابه .. ها أنا أطير فوق الأراضي اللبنانية كلها ، أنصت إلى ما شئت من حوار وكل ذلك بفضل هذا الجهاز العجيب المذهل ...

طالما حسدت عاملات الهاتف ... لو كنت عاملة هاتف لأقدمت على الاستماع إلى جميع مخابرات الناس ، و « لتلصصت » على اسرارهم دون اي شعور بالذنب .. فأنا كاتبة .. اي انني مهووسة من نوع خاص ... هوس الكاتب اسمه الحقيقة ، وهو يدفع اي ثمن كي يعرفها ضارباً عرض الحائط (والباب أيضاً) بكل القيم الاخلاقية الصغيرة السائدة ...

احياناً أجلس وحيدة في مقهى ارقب اثنين يتحاوران .. وبصعوبة أقاوم رغبتي في الجلوس خلفهما لاستراق السمع أو للجلوس مباشرة معهما وأنا أقول لهما بصراحة : « ارجو أن تسمحا لي بسماع ما يدور ... وبالنفاذ إلى اعماقكما .. لن اؤذيكما .. لن تخسرا شيئاً .. أما أنا فسأتعلم الكثير . » .

ولكنني كنت احجّم في اللحظة الأخيرة . سيظنونني جاسوسة تعمل لحساب منظمة ما . لن يفهموا ان الفنان هو مؤسسة للتجسس على الحقيقة ! ..

حوار ١

ارفع صوت المذياع قليلاً واسمع الحوار التالي :

— إلى سمير ١ بدل ... هنالك بناء على سطحه قناص مقابل جاليري .. اذهبوا وحاصروه . إلى سمير ١ بدل .

يأتيه الجواب شبه ساخر : « سيدنا ، (مش عم بسمعك) اي لا اسمع ما تقول جيداً ... »

يكرر المسؤول صراخه : « إلى سمير ١ بدل .. حاصروا البناء الذي يتواجد على سطحه أكثر من قناص ، قتلوا أكثر من عشرة من المارة اليوم ... دكوهم بالمدفعية ... »
رد الصوت اللئيم ساخراً : « سيدنا مش عم بسمعك » !
وانقطع الاتصال ...

وتخيلت القناص يتابع قتله للأبرياء ، تحت حماية أحد العسكريين الذين نسوا قسمهم بالانتماء إلى الوطن العصري وعادوا إلى انتماءاتهم الأخرى : الدينية — العشائرية ...

وغيرها ... يكرر القائد بحرقة : « إلى سمير ١ «قتلوا القناء ن ... » .

يتكرر الجواب : « سيدنا .. لا اسمعك !! ... »

وكيف يسمع الأوامر ، اذا كان يتلقى أوامره من مصدر آخر .. يا للرعب حين يصير الحكم (بفتح الكاف) طرفاً ! ... كأن المتنبي كان يعيش حربنا الأهلية حين صرخ : وانت الخصم والحَكَم ! ...

حوار ٢

تتوالى الأصوات المختلفة ، وتسقط الأقنعة ...

— اين وصلت ؟

— وصلنا وحاصرنا البناء ...

— ماذا حدث ؟

— صعدنا إلى البناء وفتشنا ، ولم نجد أحداً !! ...

حوار ٣

— سيدنا عندنا سيارة اطفاء معطلة قرب المخفر بعد اطلاق النار عليها ... سيدنا نريد نجدة ... نريد نجدة ... انهم يطلقون النار و .. بدل

— لا أحد يطلق النار عليكم ... هذا رصاص طائش ...

— سيدنا ، قتل اطفائي ...

— رصاص طائش ...

— سيدنا عطلوا الملالة ، وهنالك ثلاثة جرحى ...

— قلت لك « رصاص طائش » . بدل .

حوار ٤

— سيدنا هناك ثلاث جثث على الرصيف ... بدل

— احملهم معك .. بدل

— سيدنا السيارة لم تتسع للجثث كلها .. بدل ..

— ضع الباقي بينك وبين السائق ... بدل ..

حوار ٥

— سيدنا الاطفائية اللي جاية تطفي النار ببيت..قرب معمل...خطفها مسلحون...بدل

ـ تابعوا الدورية في الجهة الثانية من الشارع ... بدل ..
ـ سيدنا خطفوا سيارة الاسعاف أيضاً .. بدل ...
ـ لم يخطفها أحد ... تابعوا مهمة الدورية بدون تدخل .. بدل ..
ـ سيدنا هنالك حاجز من المسلحين يأمرنا بالتوقف .. هل نقاوم .. بدل ..
ـ لا يوجد حاجز .. لا يوجد خطف .. بدل ...
ـ سيدنا خطفونا ... يطلبون منا تسليم المصفحة واسلحتنا .. بدل .. سيدنا هل تسمعني ؟ خطفونا ! ...
ـ . . . . . .

حوار ٦

ـ من ٧٢٥ أوكي ، ماذا وجدتم ؟
ـ من الحازمية وما فوق لا يوجد شيء ...
ـ ابلغونا عن وجود حاجز خطف عشرة أحدهم جريح ... تحقق من الأمر .. بدل ...
ـ سيدنا لا يوجد خطف ... اخوان (بين بعض) ، وسوء تفاهم بسيط ..
ـ آمركم بالقاء القبض على الخاطفين واعادة المخطوفين .. بدل ..
ـ سيدنا (ما بتحرز) ... انهم فقط يسألونهم بعض الاسئلة ... الحالة هادئة ...
ـ نفذوا الأوامر فوراً .. بدل
ـ سيدنا لا نستطيع ... قالوا انهم سيخطفوننا .. اذا عدنا لمضايقتهم .. بدل ..

حوار هاتفي ١

ـ الو ... سوسو
ـ أهلاً ... كوكو
ـ ما الأخبار ؟
ـ لا شيء ... مجرد كوارث وقرف .. تصوري البارحة تركني الطباخ المصري والـ (فام دي شامبر) والمربية الفرنسية ستترك الأولاد لترجع إلى بلادها ...
ـ يا للهول .. وماذا ستفعلين يا سوسو ؟ ..
ـ سنسافر معها ! ...

ـ معك الحق كله .. لم نعد نستطيع العيش في هذا البلد .. تصوري ، البارحة ذهبنا إلى (الوايت واو) للسهر ، وكنت ارتدي (الروب لونغ) والفرو الفيزون الجديد ، ومع ذلك أصر صاحب المطعم على أن ننهي عشاءنا قبل الساعة ١٢ لانه خائف ... تصوري يا كوكو رجعنا للبيت الساعة ١٢/٣٠ ولم نجد اي مكان آخر للسهر ...

ـ انها « حياة كلاب » فعلاً .. يجب أن نهاجر ...

ـ على ذكر الكلاب ، سنحمل معنا القطة ماري انطوانيت ، أما القط عنتر فقد هرب .. كما قلت لك ، سنرافق جميعاً المربية الفرنسية إلى باريس .. الفلوس حولناها ... ماذا يربطنا بهذا البلد ... وبكل اولئك المتوحشين والأغراب (السوفاج) ...

ـ يقولون ان هنالك جوعاً في البلد ...

ـ عيب هذا الكذب .. لم ينقطع (السومون فوميه) يوماً واحداً عن البلد ... اين الجوع ؟ كلبي وحده يأكل كل يوم كيلو من اللحم ...

ـ زوجي يقول انها مؤامرة صهيونية شيوعية عالمية وان الدنيا لولا ذلك بألف خير ...

ـ طبعاً ... زوجك يفهم في كل شيء ... اسأليني أنا عنه ! ...

حوار هاتفي ٢

ـ ألو .. اسمع يا أخي ... لن نتخلى عن مطالبنا لمجرد ان الشيوعيين يتبنونها ، ويناضلون لاجل تحقيقها . هنالك جوع في البلد . هنالك بطالة وبؤس ومرارة . العدالة الاجتماعية يجب ان تتحقق وإلا فلا مفر من سقوط المقصلة عاجلاً أو آجلاً ...

ـ أنا معك ... لكن ما يدور هو مجرد قتال مجنون .. وما كل قتال ثورة .

ـ أحياناً تبدأ الأمور هكذا ... يذهب جيل من الضحايا كي تتبلور ثورة واحدة ... لو يفهم الحكام ذلك لوفروا علينا وعلى أنفسهم هذا القربان الباهظ ...

ـ ولكن ما يحدث الآن هو مجرد كوابيس ...

ـ ربما ... ولكن كوابيس الجياع ليست اضغاث احلام ... انها انفجارات هوجاء لقضية عادلة ...

ـ بين جنون الدم وصرخة الحق خيط رفيع وقد ضيعته الأطراف كلها ..

ـ ربما مرحلياً ... ومطلوب من المتقاتلين مراجعة ذاتية كي يتوقف شلال الدم عن الانهمار عبثاً .. ليس الموت هو المرعب اذا كنا نموت من أجل بناء حياة أفضل

لاطفالنا ... المرعب هو ان نموت عبثاً ودونما معنى ...

حوار هاتفي ٣

ـ هل ستأتي الليلة ؟ الأولاد يفتقدونك ...

ـ لا استطيع ، المستشفى تغص بالجرحى ... وبجثث الذين يموتون ساعة وصولهم ...

ـ ولكننا لم نرك منذ ثلاثة أسابيع .. وقد وعدت بالحضور الليلة مهما كانت الأحوال ...

ـ آسف يا منى . لا استطيع ..

ـ في صوتك شيء غير عادي .. ماذا حدث الليلة ...

ـ لا شيء ...

ـ أريد ان أعرف ... انني واثقة من أن شيئاً غير عادي قد حصل .. ما هو ؟ ..

ـ جاؤوني برجل اطفائي برتبة عريف، قالوا انه كان يسحب مياهاً تسربت إلى بعض المستودعات ، وكان قد لفظ انفاسه ، فقد اطلق عليه الرصاص مسلحون ..

ـ ما الجديد في ذلك ؟ انهم يطلقون الرصاص باستمرار على رجال الاسعاف والاطفائيين ... ويأتونك كل يوم بعشرات !

ـ الجديد في ذلك أن الاطفائي كان مبتور الذراع اليمنى والقدمين ! .. هنالك من لم يكتف بمنعه عن العمل ، بل هنالك من عذبه قبل القتل وتلذذ بذلك . هنالك من استخدم فأساً و (حطّب) أعضاء جسده .. اسمعي يا منى .. أنني أشعر بالخوف .. هل تفهمين ؟ أشعر بالخوف لاول مرة ... ما يجري في هذه المدينة له طعم الجنون .. لهذا القتال لذعة السادية ، وهذا ما يرعبني ...

اشعر بحاجة إلى الرحيل ...

ـ هذه أول مرة تتحدث فيها بهذه اللهجة ، وانت الذي كنت تعيب على اضدقائنا سفرهم ومغادرتهم البلاد بينما هي تنزف بدلاً من العمل لوقف النزيف ...

ـ صارت يدي ترتجف وأنا أجري العمليات .. البارحة لاحظت الممرضة ذلك بينما كنت أخيط جراح صبي في الرابعة عشرة من عمره ... تصوري انهم خطفوه وعذبوه ... والذين عذبوه لا يزيد عمرهم عن عمره بكثير كما ذكر لي .. لقد خطت جرحه بأسوأ مما يفعل اي تلميذ طب مبتدىء ..

ـ تعال فانت متعب ...

ـ سأعترف لك . لا أجرؤ على الخروج من باب المستشفى . صرت أخاف من الشوارع . وقد علقوا بعد الظهر أمام باب المستشفى لافتة مكتوب عليها : انتبه . قناص يرحب بكم .

ـ ماذا ستفعل ...

ـ سأصعد إلى سطح مستشفاي واعمل قناصاً ... انني خائف خوف الحمل الطفل . لن ينقذني سوى ان اتحول إلى ذئب ...

وانفجر يضحك كما لو أنه القى بنكتة . لكنني سمعت مني تصرخ :

« ارجوك تعال قبل أن تجن » ...

كان واضحاً انها تعرفه جيداً ... وانها تعرف انه كان جاداً فيما قاله ، وانه بعد اقفال الهاتف بدقائق سيكون واقفاً على سطح مستشفاه ... تراه سيطلق النار على رأسه بعد أول عابر سبيل يصطاده ؟ ...

* * *

كابوس ٥٦

لقد انهدم الجدار ... صارت الريح مملكتي ، وصرت قادرة على الاستماع إلى أي حوار يدور في هذا الوطن الحزين ، بفضل ذلك الجهاز العجيب : الموجة القصيرة في ترانزستور أمين ...

ارهقني الانصات بصورة لم اكن اتوقعها .. نهضت أبحث عن شيء آكله .. وجدت بقايا علبة فيتامين وفرحت بها ... لا أحد يدري حتام يطول سجني ... ها أنا اشرف على نهاية اليوم الثالث ولم يقرع بابي مخلوق ولم يمر على الرصيف المقابل انسان ...

حين يهدأ دوي الرصاص ، تأتيني من جديد أصوات اولئك المساكين : مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة القريب ...

انه اليوم الثالث وهي معزولة وسجينة لم تر الشمس .

لعلها بدأت تجوع . لعل الطعام في اقفاصها قد نفد . والماء أيضاً . حتى ولو أراد صاحب الدكان إطعامها لعجز عن ذلك في مثل هذه الظروف ... لا اعتقد أن أحداً يمكنه الوصول اليها .. ربما كنت قادرة على ذلك ، إذا تسللت من باب بيتنا إلى الحديقة ومنها

إلى نافذة المخزن الخلفية التي يوازي ارتفاعها سطح الأرض عند سور حديقتنا ... ولكنني الآن هدف ممتع لعشرات القناصين المحيطين بنا ... عليّ ان انتظر حتى الغروب ...

ما الذي يشدني اليها ؟ ما الذي يجعل أصواتها تسكنني ؟ ما الشيء المشترك بيننا ؟ لقد أحببت دوماً جميع مخلوقات الطبيعة من بوم وسنجاب وسحالى وضفادع ولكن ما احسه الآن يختلف تماماً . اشعر برابطة بيني وبين سجناء ذلك المخزن المرتعدين خوفاً في اقفاصهم ، عزلاً وحائرين ! تراها رابطة وحدة المصير ؟ ..

تراني واحدة منهم دون ان أدري ؟ .

* * *

كابوس ٥٧

عادت الصواريخ ... اشعر بالاعياء ... أحتمي بالدهليز ، مهددة بالموت مطمورة تحت رف الكتب الكبير ... أتذكر الجاحظ الذي مات مطموراً بكتبه أثر سقوطها عليه . اتذكر الشاعر توفيق صايغ الذي طالما ابدى لي خوفه من الموت تحت رف كتبه . كانت غرفة نومه مليئة بالرفوف الخشبية ، ولو سقطت فوقه لقضت عليه . ظل يخافها ولا يفارقها . لكنه لم يمت تحتها . مات بعيداً عن بيته وأهله ، في أميركا داخل مصعد ... ترى هل كان المصعد خشبياً كرفوف كتبه ؟ وهل كان مقدراً لإخشابها ان تصير مكتبة ، ثم بدلت في آخر لحظة إلى جدران مصعد ؟

آه الدهليز يحيط بي من كل جانب .. تراه قبري ؟ اغمض عيني ... ينفتح جدار الدهليز ... اتذكر ابن الرابعة عشرة الذي سمعت الطبيب يتحدث عن جرحه المفتوح ...

أرى أطفال هذا الوطن الحزين وهم يرقبون فيلم العنف الذي يدور على شاشات نوافذ بيوتهم التي تحولت إلى تلفزيونات لا تبث غير مشاهد العنف .

أرى كريم ، عمره ١١ سنة أو أكثر قليلاً . كل ليلة يعود والده مغطى اليدين بالدم وكريم يرى ... كل ليلة يتحدث والده إلى بقية رجال الحي عن عدد الذين قتلهم وعذبهم وكريم ينصت ... الجار يتحدث عن عدد المحلات التي نهبها وكريم ينصت ... الشوارع خالية ، وأهل المدينة قد اختبأوا في بيوتهم التي تحولت إلى أقفاص مهددين بالموت جوعاً أو حرقاً ، تماماً كمخلوقات بائع الحيوانات الأليفة السجينة في المخزن وكريم يرتجف . المدينة مخزن كبير لبيع الحيوانات الاليفة . الشوارع يملكها من يجرؤ على الخروج اليها

وكريم يختنق .. الجار يذهب إلى أي مخزن يختاره مع غدد من رفاقه .. يكسرون الباب يدخلون يحملون ما يشاؤون من حاجيات : برادات ، غسالات ، تلفزيونات ... كل ما تريده ملك لك اذا كنت تجرؤ على الذهاب لاحضاره وكريم يتعلم .

وكريم يحلم . يحلم منذ طفولته بأنه يمتلك مخزناً كاملاً للألعاب ، يطلقونه فيه طوال النهار دون حسيب أو رقيب . هذه الليلة نام كريم كعادته وهو يستعجل قدوم الحلم . استيقظ في الصباح وقد هجره الحلم . لم يحلم . لم يدخل مخزن الألعاب الكبير القريب من بيتهم . لم يركب السيارات الشبيهة بسيارات الكبار والمحرمة عليه لفقره . لم يلمس البسكليتات البراقة الألوان . لم يتحسس شعر الدمى ويكشف ثيابها عن سيقانها ليكتشف جسدها . لم ينفخ فقاعات البالونات الملونة . لم يعزف على البيانو الصغير . لم يضع عينه على الميكرسكوب النموذج . لم يعمر بيتاً من الميكانو . استيقظ وقد أحس أنه خسر شيئاً ما ... لكن شعوراً جديداً غمره ...

جمع أولاد الحي . كان أكبرهم . لقب نفسه بالزعيم ، « ابو العتمة » ، تماماً كما يحلو لوالده وللجار ان يناديهم أصحابهم ...

وهمس بخطته للأطفال ، فوافقوه فوراً ... كان قفل دكان بائع الألعاب حديدياً لكنهم استطاعوا باجسادهم الدقيقة الانسلال من الفجوة التي أحدثوها في زجاج الواجهة.. قفزوا داخل مخزن الألعاب مثل الف قط متوحش أطلقوا فجأة على الطعام بعد طول جوع ... كان أكثرهم حفاة ، هاجموا الألعاب التي نموا عاماً بعد عام وهم يرقبونها من خلف الواجهة الزجاجية بحسرة ، ويرونها أحياناً في أيدي الأطفال الآخرين الذين يركبون السيارات ويرتدون الأحذية ... لعبوا كما لم يلعبوا في حياتهم ... لم يتركوا دمية لم يجربوها ... لم يتركوا دمية لم يقطعوا رأسها في محاولة منهم لاكتشافها ... لعبوا طوال النهار ، وكانت الشوارع خاوية تماماً ، ولم يلحظوا الرجل الذي سقط قتيلاً برصاص قناص على الرصيف في الخارج .. ولم يعودوا يسمعون صوت الرصاص ... كان هجومهم مركزاً على الأسلحة القتالية في مخزن الألعاب ... المسدسات والرشاشات والسيارات الجيب والمدرعات والمصفحات والمدافع والطائرات وقلائل منهم اهتموا بسيارات الاسعاف أو الحريق ، فقد سمعوا آباءهم يتحدثون عنها بازدراء كأهداف سهلة لا تقدر على الدفاع عن نفسها ... ثم تعبوا وجاعوا ، ومع الجوع شعروا بشيء

من الخوف فقرروا العودة إلى البيت بعد ان يحمل كل منهم ما يقدر عليه من غنائم ... طفل واحد منهم فقط ، قرر أنه يكره الأسلحة وصوتها ، فقد شاهد المسلحين يقتلون والده أمام عينيه ، وفضل معانقة دمية كبيرة زرقاء العينين حريرية الشعر ، تغمض عينيها وتفتحهما ، وتنطق بلغة لا يفهمها حين يضغط على زر معين تحت ابطها ... كان أول الأطفال إلى الخروج من المخزن ، وكان يرتجف ، فتعثر وسقط على زجاج الفجوة التي تسللوا منها ، واخترقت جسده كخنجر حاد .. خاف بقية الأطفال حين شاهدوا الدم يتدفق والطفل لا يصرخ ، وتجمعوا حول كريم بصفته زعيم الحملة ، لكن كريم كان مذعوراً ، وأراد ان يرمي بالرشاش الذي اختاره والمدرعة والمسدسين ويهرب ، لكن الطفل كان ينزف وقد سد الفجوة بجسده .. وعبثاً يزيحونه من الدرب ... وتعالى صراخ الأطفال ، وتشاجروا وصاروا يطلقون النار بعضهم على بعض وسقط منهم بعض القتلى والجرحى ثم تدافع الناجون فوق جسد الصغير النازف الذي ظل ممسكاً بدميته ، وكان عليهم ان يدوسوه كي يخرجوا ، وكانوا يتدفقون على الأرض واحداً بعد الآخر ، والزجاج يمزق أجسادهم الطرية ...

الأطفال الذين عادوا تلك الليلة إلى بيوتهم كانوا ينزفون ، لكنهم كانوا ما زالوا يقبضون على اسلحتهم بشدة ! ... طفل آخر كان يرقـد على الرصيف إلى جانب جثة الرجـل .. كان آخر طفل خرج من الفجوة وقـد اعتبره القناص عصفوراً .. فاصطاده !

* * *

كابوس ٥٨

هدأت الانفجارات قليلاً ...

غادرت الدهليز ، مقري (الحربي) ... ذهبت إلى فراشي ، وكان الرصاص قد مزق الوسادة ... غمرتني لا مبالاة يائسة ... تمددت فوق الفراش المليء بشظايا الخشب والحديد والرصاص وحاولت ان استرخي .. قليلاً ... فككت رأسي من مكانه ووضعته إلى جانبي على الوسادة .. عبثاً أنام ... تعلقت عيوني بالساعة الرملية التي كان قد أهداني اياها حبيبي يوسف ... كانت تتألف من كرتين من الزجاج الشفاف يفصل بينهما مضيق يسمح بانتقال الرمل من كرة إلى أخرى ... وكان انتقال الرمل من كرة إلى أخرى

يستغرق نصف ساعة بلغة الساعات العصرية ... كان رملها فضي الزرقة ، اثيري اللون كما لو كان لون الزمن ... قال لي يومها : سيظل حبي لك متدفقاً كهذا الرمل .. كلما شككت في حبي ، اقلبي الكرتين ، واذا تدفق الرمل فهذا معناه أنني أحبك .. لم أشك لحظة في حب يوسف حتى الآن وهو ممزق (دوماً يأتيني والريح تهوم عبر ثقوب جسده فاضمه إلى قلبي بكل ما في روحي من طاقة على الحنان والاتحاد بروح أخرى) ... ولكنني قلبت الكرتين .. وبدأ الرمل يتدفق من الكرة العليا إلى الكرة السفلى ببطء ولكن باستمرار ... باستمرار ... أتأمله ينزلق ... ينزف ... دونما توقف ... لا شيء يستطيع إيقاف إنزلاق رمل الزمن ... لا فجيعة ، ولا فرحة ، ولا زلزال ، ولا حرب أهلية ، ولا موت يوسف ... ولا موتي أنا ، واذا أصابتني في هذه اللحظة رصاصة فجرت رأسي فسوف يتابع الرمل جريانه المحتوم ... لعلي مرهقة وقد هدتني الانفجارات المتتابعة ، فقد نفدت الكرة العليا من الرمل وتكوم الرمل في الأسفل وان كنت أعرف ان رمل الزمن اللامرئي ما يزال يتابع جريانه في كرة الكون اللامتناهية الاتساع ...

تأملت الرمل الفضي الأزرق المكوم في قاع الكرة السفلى ... وفجأة حدث شيء عجيب ... بدأ الرمل يصعد من الكرة السفلى إلى الكرة العليا بالسرعة ذاتها التي يتدفق بها عادة ... كأن الزمن يعود إلى الوراء ... ثم بدأ تدفق الرمل من الأسفل إلى الأعلى يتسارع ... يتسارع .. يتسارع .

ها أنا ويوسف معاً على شاطىء البحر ، وجسده ليس مثقوباً بالرصاص ... ها نحن نعيش أيامنا الحلوة ... كل شيء يتكرر ... تماماً كما كان .

* * *

كابوس ٥٩

ها أنا ويوسف معاً على شاطىء البحر نجلس على الصخور ... كنا بريئين ونقيين كالاسماك ، والحب يتدفق من انحناءة جسده نحوي كرحم .. كان حضوره يحيط بي كدائرة حول نقطة ... احسست به كياناً من كهارب الضوء والمغناطيس ، وكنت منجذبة اليه ومسحورة بحضوره ... انه الشاطىء حيث كنا ... وحبنا يكتمل دائماً خارج الجدران ، خارج المقاهي ، خارج الاسمنت .. لم تكن علاقتنا قد انقطعت مع نباتات الأرض ومخلوقات البحر والطيور والريح والفصول وزنابق الصخور ، لم نكن قد قطعنا

(الحبل السري) الذي يربطنا بالكل الواحد ، وكان لقاؤنا يمنحنا ذلك الحس المذهل بالسلام ، وبأن الكون متناغم مع دوران الدم في عروقنا .. ذلك الحس الرائع بأن ايقاعك استطاع أخيراً التواصل مع ايقاع الوجود ، وانك لا تشعر بخلل بين صوتك الداخلي وصوت الكون الكلي البهاء المحيط بك ... وبأنك بطريقة ما امتداد للرب الكوني العظيم ، وضربات قلبك متناسقة مع ضربات قلبه ، وقلب البحر ، وقلب الشجر ، وقلب الحجر ، وقلب الريح ، وقلب الليل ، وقلب النجوم ...

(انه الشاطىء حيث كنا ..

وكنا رعايا مملكة الحب ، وكان علينا ان نلتفت إلى الوراء لنرى بيروت تتربص بنا كالوحش ... بيروت التي كل ما فيها قائم على مناصبة العداء للعدالة والحق والرب ، اي على مناصبة العداء للحب ..

كان علينا ان نفهم ان بيروت تقف خلفنا كالقناص لتصطاد حبنا ..

كان علينا ان نفهم ان العمل من اجل إنقاذ حبنا يحتّم علينا العمل من أجل إنقاذ بيروت .. لانك لا تستطيع ان تزرع غابة على سفح بركان هائج .. لا تستطيع ان تبني بيتك داخل قنبلة موقوتة ...

قال لي يوسف : كل ما في هذه المدينة ضدنا ، لا لأننا ننتمي إلى دينين مختلفين ، ولكن لمجرد اننا .. نحب .

والتفت خلفي . شاهدت بعض الرؤوس تختبىء وراء الصخور .. قلت : هناك من يراقبنا .. كانت الرؤوس تتكاثر ... خلف كل صخرة كان هناك من يراقبنا كالحراس ..

مد يده ليمسك بيدي ، ليتوحد شريان ما بيننا ويسري الدم من جسده إلى جسدي ، والانفعالات والارتعاشات ، ولنصير كتوأم في رحم الحب . قلت له : ارجوك ... لا تمسك بيدي ... ذلك سيشجعهم على الاقتراب منا وربما الاعتداء علينا ...

كانت الاحتمالات كلها ممكنة .. كأن نتعرض لرصاص قناص .. أو لمسلح يسطو على ما نملك ، او لكل صور الاعتداءات الاخرى الباقية ...

وما دمنا نجلس هكذا ، واحدنا بعيد عن الآخر ، فأنهم سيكتفون بمراقبتنا متحفزين . واول بادرة حب نعبر عنها جسدياً ستكون بمثابة اشارة الانقضاض ، لانها ستحرمنا من

(حماية الرأي العام) التي ما نزال ننعم ببركتها ، بحيث قد يتبرع البعض للدفاع عنا في حال (الهجوم) علينا ...

قال لي : غريب امر البشر في هذه المدينة . لوضممتك إلى صدري وقبلتك لصار كل الذين يرقبوننا من خلف الصخور شبه اعداء لنا ... واذا اعتدى احدهم علينا فسيغض الباقون الطرف ... اما اذا صفعتك مثلاً فإن أحداً لن يتدخل لا لانهم سيظنونك زوجتي بل لأن مظاهر الكره لا تثير البشر في هذه المدينة بقدر مظاهر الحب ... الكره مشهد عادي بالنسبة اليهم . الحب مشهد خطر .. تهديد لهم . لو تشاجرنا الآن لكفوا عن مراقبتنا ، لانهم سيطمئنون إلى اننا مثلهم !! الحب يثير الانتباه والفضول والرغبة بالاستغلال والرفض الجماعي ، اما الكره فانهم يمرون به كظاهرة عادية ..

قال لي : احبك فعلاً ... لو اتى مسلح وبلغني انه يريد ان يقتل احداً منا لقدمت له نفسي فداء لك ...

– احبك .. ولو رمى احدهم الآن باصبع ديناميت لابتلعته فوراً لاحميك بجسدي ...

– لو مرروا فوقي مصفحة جيئة وذهاباً كي اهجرك لما فعلت ..

– لو انتزعوا لساني من فمي بكماشة وقطعوه لظللت اردد اسمك .

– لو خيروني بين فراقك اسبوعاً واحداً او قطع اذني لتركتهم يقطعون اذني دونما تردد ...

وفجأة وجمنا معاً . لاحظنا اللغة التي نتبادل الهوى عبرها .. كأن الطيور بدلاً من ان تغني صارت تعول .. كأن البلابل لا تزقزق وانما تولول .. لاحظنا الى اي مدى تشوهنا ، حتى صارت لغة الحب هي نفسها لغة القتل والعنف والارهاب ... ضحكنا من انفسنا لكن كلا منا كان يشعر في اعماقه بغصة لا متناهية ...

اقترب منا رجل يحمل سلة وقصبة طويلة للصيد . كان حافي القدمين تبدو عليه رقة الحال . تأملنا بعينيه الضيقتين اللتين ازدادتا ضيقاً حتى صارتا اشبه بثقبين حادين تخرج منهما اشعة شريرة ...

قال يوسف : حتى الفقراء ضد انفسهم لانهم ضد الحب كالاغنياء .. لقد ربوهم على ذلك لقتل غريزة الحق في نفوسهم .. انهم منذ الصغر يلقحونهم ضد الحب تحت

ستار القيم المتوارثة والدين والاخلاق والفضيلة .. وحين تتعطل حاسة الحب تتعطل معها حاسة الثورة ... اولئك الساسة المحنكون يلوثون قمح الجماهير بالمفاهيم الخاطئة ويخدرون حاسة الحب فيهم ، كما تخـــدر حاسة الجنس لدى المساجـــين بدس الخشخاش في مأتهم ...

وكنت اتأمل الصياد العاري القدمين . بدا لي حائراً بقدر ما هو جائع .. لم يعد الانهيار العصبي مرض المترفين فقط . انه الآن مرض اضافي لامراض الكادحين (في التاكسي ما تكاد تغلق الباب حتى يفتح السائق فمه . يباشر بالشكوى . بالصراخ من حال البلد . حياته مهددة في كل لحظة بالموت والاختطاف . ترفع سماعة التلفون لتطلب مخابرة . عاملة الهاتف تقول لك : لا ضرورة لهذه المخابرة فستكون على اية حال مجرد ثرثرة ، فالعمل متوقف في هذه المدينة .. دعني انا اثرثر لك . ان مجرد حضوري لممارسة عملي مغامرة لا تصدق ... دعني احكي لك ما حدث لي في طريقي اليوم ...

واذا ذهبت الى البقال لتشتري شيئاً فستجد نفسك كأنك في ردهة لاحد مستشفيات المجانين . سيكون هنالك شخص ما فقد اعصابه اكثر من الباقين ، وسيجد وسيلة لفتح حوار مع احد الزبائن ، سيدور الحوار بصوت عال بما فيه الكفاية ليشارك فيه الجميع لانهم متعبون وخائفون وحائرون ، وهم يشترون حاجياتهم دونما بهجة لانهم يعرفون انها مجرد مؤن لسجن لا يدرون إلى متى يطول ، ثم ان احداً منهم ليس واثقاً من انه سيصل إلى البيت سالماً باشيائه كلها ... اية سوبر ماركت في المدينة هي ردهة من ردهات احد مستشفيات المجانين ... ايقاع الحوار ونبض المدينة كلها هو نبض مصـــح عقلي شاسع ... ترى اين قرأت ان احد المجانين فر من مستشفاه حاملاً معه اللافتة المكتوب عليها « مستشفى المجانين » ، حيث انتزع لافتة « بـــيروت ترحب بكم » وغرسها مكانها ؟ ...

كنت اتأمل الصياد ، وقد شردت مع افكاري ... وكنت سعيدة لانني عاشقة ، فالحب درع في زمن الحروب الاهلية ، يحمي من الجنون على الاقل ، وان كان يجعل العلاقة اكثر مرارة وصعوبة ... كان زواجنا في مثل هذا الزمن الرديء سيتحول إلى فضيحة (قومية) في اجوائنا العائلية لمجرد ان العبارة المكتوبة في خانة (المذهب) في بطاقتي الشخصية ، مختلفة عن العبارة المكتوبة في بطاقته الشخصية ! .. ان (بطاقتي

الشخصية) ليست (هويتي) ولا ادري سبب توهم الناس انهما عبارتان مترادفتان ...
وفجأة ، سقط الصياد على الارض ... ركضنا اليه ، يوسف وانا و (حراسنا) من الفضوليين . كان ما يزال حاراً ، وعيناه ما تزالان مفتوحتين ، لكنه كان يحدق في نقطة غير مرئية بالنسبة الينا .. ومن مؤخرة رأسه بدأ قليل من الدم اللزج يتبدى بوضوح فوق شعره الاشيب خارجاً من ثقب كبير .. والتفتنا إلى الخلف بهلع ، هنالك قناص ما ، رابض خلف بندقية ما ، هنالك رصاصة ما يمكن ان تنطلق في اية لحظة لتصيب رأساً من رؤوسنا ولم نر شيئاً سوى مئات النوافذ المشقوقة في عشرات الابنية الشاهقة المحيطة بفندق الكارلتون .. وحدث ما توقعناه . انطلقت الرصاصة الثانية ، واصابت الارض قرب اقدامنا راسمة حدوداً نارية غير مرئية . فهمنا ان القناص لا يريد ان نتجاوزها ... وفهمنا انه مطلوب منا ترك الرجل يموت اذا لم يكن قد مات .. مطلوب منا العودة إلى الاقفاص المعدة لنا كأي قطيع من الحيوانات التي تم ترويضها على الخوف وسجن نفسها تلقائياً . رصاصة واحدة في اي شارع صارت كافية ليهرع كل من يسمعها أو يسمع بها راكضاً إلى قفص وقد احكم على نفسه اغلاق الباب ! ...
خمس دقائق ، وفرغ الشاطىء ... كان علينا منذ تلك اللحظة ان نفهم ان « الحياد » او (المسالمة) هي الجريمة الاولى ... كان علينا ما دمنا قد رفضنا الرحيل ان يكون بقاؤنا (فعلاً) ، لا كبقاء الاشجار التي لا تغادر المدينة لمجرد انها زرعت هناك ... كان علينا ان نعمل كي يكون البقاء مجدياً وجميلاً ... كان الحياد هو خطيئتنا ، ولذا فقد دفع حبيبي حياته ثمناً بأن مات عبثاً ... دونما معنى ولا جدوى ! ...) وها انا الآن ممددة على فراشي المكسو بآثار القصف ورائحة البارود انتظر ان أموت او أنجو كما ينتظر ذلك اي حيوان أليف في قفص من حيوانات الدكان المجاورة ...
توقفت حبات الرمل الاثيري عن الصعود من الكرة السفلى إلى العليا ، وتوقف الماضي عن التكرار ... عادت حبات الرمل لتنزلق إلى الاسفل ... إلى هاوية اللاتكرار ... كل لحظة عشناها كانت فريدة ، كل لمسة ، كل كلمة ، كل شجار ، لأنها كلها تستعصي على التكرار ... إلا في الكوابيس .
اظل اتأمل هدية يوسف إلي ... الساعة الرملية المدهشة .. حين منحها لي كنت اعتقد ان رملها سيجري دوماً من الأعلى إلى الأسفل .. كما تقول قوانين الفيزياء جميعاً ..

لم اكن أدري انه ستمر لحظات يصهر ألمي فيها كل منطق ، وتسوس أوجاعي أحصنة الزمن لتركض بحوافرها إلى الوراء ... معيدة الي يوسف وزمن يوسف ولو للحظات ...

ترى ، كم كيساً من الرمل تتألف منه سنوات حياتي لو كان رملها ينزلق من ثقب دقيق كالثقب بين هاتين الكرتين ، وبالسرعة ذاتها ؟ ... وكم فرغ منها ؟ وهل فرغ منها أكثر مما بقي ؟ ... ترى هل تصيبها رصاصة أو شظية من تلك التي تمطر الآن فوق بيتي فيتدفق الرمل دفعة واحدة في دقائق موجزة وينتهي الأمر ؟ . ترى ، كم كيساً من الرمل تتألف منه حياة اي انسان ؟ ولماذا لا يقال لنا منذ البداية « هذا نصيبكم ، فلا تنسوا أن الرمل لا يكف ثانية واحدة عن الانزلاق » ... وحياتي ، اكياس الرمل التي لا اعرف كم عددها ، لماذا لم تكن قط كافية لبنـــاء متراس يحميني من سطوة الغربة والتشرد ، والوعي الدائم بأن وجودي عابر ، وما الفرح فيه سوى رقصة مسكينة فوق متراس بحي مقفر ؟ ... -

اولئك الجالسون فوق اكياس الرمل ، وفي ايديهم الرشاشات ، الا يعلمون ان وجودهم أقل ثباتاً من أكياس الرمل المحكمة الاغلاق التي يجلسون فوقها ؟ كأن جسد كل منا محشو بالرمل ، وفيه ثقب صغير اسمه الزمن ، ينزلق منه الرمل باستمرار ، ويحرمنا في كل لحظة من بعض حصتنا بالشمس والريح ومتع الحواس ؟ .. ولماذا يخلقون في أجساد بعضهم بعضاً مزيداً من الثقوب لمجرد أن (البيك) امرهم بذلك او اقنعهم بذلك عبر خطبة لغوية بليغة يغطي بها صفقاته ومصالحه المشتركة مع (بيك) الفئة الأخرى التي يتقاتلون وصغارها ؟ ... اولئك الأبرياء الذين يموتون كمجرد أكياس محشوة بالرمل ، متى يرون الرابطة الحقيقية بين متراسهم والمتراس المقابل ؟ رابطة الذل المشترك والقهر المشترك ، والحرمان المشترك من الحب .. اي الفقر على كل صعيد ؟ .. متى ترفض الضحية في بلادي حمل الجلاد على كتفيها ؟ ...

* * *

كابوس ٦٠

ما زلت انتظر الغروب لأزور جيراني ، مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة . اتابع قراءة الصحف العتيقة المكدسة في بيتنا ... تبدو لي التسلية الوحيدة الممكنة وفي الوقت ذاته تبدو لي تعذيباً ... اقرأ ... واقرأ ... من أول يوم سجنت فيها وأنا أعيد قراءتها ...

أراها بعين جديدة .. كل خبر فيها صار له مغزى جديد ودلالة مختلفة .

قرأت الاعلان التالي : من مسلماني وسمير إلى أهلهم في منطقة النبطية . نحن بخير فاطمئنوا !!! ..

غمرني رعب لا حدود له . إنها الغابة . لا أثر للحضارة بعد اليوم حولنا . الهاتف اختراع تم بعد العصر الحجري ونحن عدنا إلى العصر الحجري، ولعلي اقرأ الصحف القديمة وامسح بكتبي كي اؤكد لنفسي انني اعيش في هذا العصر المفروض انه عصر الفضاء .. ربما كانت هنالك مركبة فضائية تنطلق في هذه اللحظة من الأرض إلى كوكب ما لاكتشافه ومع ذلك ما يزال في كوكبنا من يحيا عذابات العصر الحجري ! ... الصحف وحدها تجعلني اصدق لدقائق انني ما زلت في عصري نفسه ولم تختل عجلة الزمن ببيروت وتعيدها فجأة آلاف السنين إلى الوراء . . أية مأساة ان نعيش في وطن يصبح فيه بقاؤنا على قيد الحياة خبراً يستحق الاعلان عنه ؟ ... لو توقفت الصحف عن الصدور — كما سيحدث اذا تابعوا تدميرها — كيف سيتصل حسن وسمير ومحمد بأسرهم ؟ كيف سيوصلون نبأ نجاتهم من الوحوش إلى أهلهم في الطرف الثاني من الغابة ؟ أبالدخان على طريقة الهنود الحمر ؟ بقرع الطبول ؟ .. بالحمام الزاجل ؟ ...

اقرأ : جاءنا ما يلي : «علي فادي يوسف من عرمتى وهو غير علي يوسف الذي عثر عليه مذبوحاً بأيدي (......) » ، اعجبتني صيغة الاعلان .. اذا نجوت فسأنشر اعلاناً اقول فيه : اعلن انا انني لست غير التي وجدت مذبوحة في مراحل مختلفة من حياتها والتي توفيت عدة مرات وقامت من رمادها . واعلن انني ما زلت على قيد الحياة وقادرة على ان اذبح مرات عديدة أيضاً في المستقبل ! ...

ها هي الشمس وقد بدأت تلملم عباءتها الذهبية وعما قريب تلقي الطبيعة رداء الليل الأسود .. حان وقت زيارتي لدكان بائع الحيوانات الاليفة ...

انه الليـــل ...

ليل المتفجرات والرعب .. ليل الأرواح الهائمة ، الغاضبة ، التي صارت صرخاتها مكتوبة بلغة الحديد والنار على وجه السماء ..

وانا اتسلل خارجة من بيتي . اهبط درجات السلم . الحظ بأسى انني احني قامتي ، ليس فقط عند النوافذ بل على طول السلم ... حتى حينما اتحرك داخل البيت صرت احني

قامتي . صحيح ان تجربة الرصاصة (البلياردو) علمتني ان الانخفاض تحت مستوى النوافذ لا يجدي مع الاسلحة الحديثة ، لكنني رغم كل شيء صرت أحني هامتي إلى ما تحت مستوى النوافذ .. كأنني أنحني لا للرصاص وانما لمنطق الرصاص .. كم هو مذل ان يتحرك الانسان أياماً وأياماً وقد أحنى قامته كالأحدب ... حتى ولو عاد السلام إلى هذه المدينة ، فأنه سيجدنا قد نسينا المشي منتصبين ، وصارت مشيتنا أقرب إلى مشية القردة ...

انه الليل ...

ليل الوحشية والموت المختبيء حتى تحت اظافرك ... انه ليل الدمار .. وانا وصلت إلى الحديقة وانعطفت إلى خلف المنزل ...

في البداية أخافني العراء .. وأخافني ان اسمع صوت الرصاص في العراء للمرة الاولى .. طوال الأيام السابقة كنت اسمع صوت الرصاص وانا محتمية بالجدران او بالاثاث أو ملتصقة باي شيء ... اما الآن وانا اقف في الحديقة تحت السماء بجسدي الهش دونما اي نوع من الدروع والمظلات واسمع مطر الرصاص ، تعتريني رجفة مخيفة ..

صوت الرصاص في العراء شيء مختلف ... انه الموت وقد خلع قناعه وتقدم منك .. انك انت تلك النملة في مملكة الليل الشاسعة ... ركضت إلى أقرب شجرة — وكانت نخلة — والتصقت بجذعها ... دفنت نفسي في صدرها العاري وخيل إلي انني اسمع دقات قلبها ... اسمع النسغ يركض في عروقها ... اسمع الخوف يدق طبوله داخل خشبها ... ازداد التصاقاً بها .. نصير شجرتين مذعورتين ... نصير انسانين مذعورين .. نصير حياتين مذعورتين ... ولكنها ستظل مكانها حتى تصيبها قنبلة او لا تصيبها ... انها لا تستطيع مثلي ان تطلق ساقيها للريح ... احسست بشيء من العزاء لانني انثى لا شجرة ، ولانني استطيع ان أركض ...

آه صوت الرصاص في العراء وانا وحيدة ... في البداية اخافني إلى أبعد مدى ... كانت كل رصاصة تستقر في جسدي انا شخصياً وكل قذيفة تنسفني انا شخصياً ثم قررت : الرصاصة التي ستصيبني لن أسمع صوتها . والقنبلة التي ستطيح بي لن ترعبني لانني سأكون ممزقة قبل ان أجد وقتاً للرعب ... فلم الخوف اذن ؟ ... كل ما أسمعه لا يمكن ان يؤذيني ما دام كل ما سيؤذيني لا يمكن ان أسمعه . أمدني هذا الخاطر ببعض

القوة ، لكنني على الرغم مني ظللت ارتجف كلما دوى انفجار ... سرت في الظلام باتجاه الجدار الخلفي لدكان بائع الحيوانات الاليفة ... كنت اعرف جيداً مكان الاشجار والنباتات في الحديقة ، لكنني تعثرت أكثر من مرة رغم ان الظلام لم يكن دامساً تماماً ... رفعت رأسي إلى السماء . لا قمر . هنالك فقط بقايا مصابيح الشارع التي ما زال أكثرها يضيء ... اصل إلى النافذة . ضيقة وعلى مستوى الأرض من ناحية الحديقة ، لكنها قد تكون مرتفعة جداً بالنسبة لأرض المخزن ، فكيف أهبط منها؟ ... ربما كان علي أن آتي معي بحبل . لكنني لم اتسلق حبلاً من قبل . ترى هل الأمر سهل كما في الافلام ؟ كل ما يحدث لي في هذه الأيام سبق لي ان شاهدته في الأفلام واكتشفت كم الحياة المعاشة تختلف عن تلك المغامرات التي تزيف الحياة على الشاشة . قد يكون تحت النافذة كرسي أهبط عليها ... او صندوق .. او أحد أقفاص الحيوانات .. ولكن لماذا استبق الأشياء ؟ فلنحل المشكلة خطوة خطوة . المهم أولاً أن افتح النافذة قبل ان أفكر بكيفية الهبوط منها ...

تحسستها في الظلام .. شعرت أنها مكسوة بالأوساخ وبطين جاف ، وان بعض الحشرات او الديدان الصغيرة تركض فوقها مذعورة لوقع اصابعي ... كانت النافذة مغطاة بشريط من (المنخل) داخل إطار من الخشب .. ترى هل خلفه قضبان ؟ سأعود إلى البيت لأحضر مقصاً وأقص به (شريط المنخل) الحديدي الذي يبدو من ملمسه المتقعر ان الصدأ قد أكله ... اهز الاطار بيدي فيذهلني كم هو مخلخل ، ويذهلني ان النافذة كلها قد خرجت في يدي ... وخلفها لم تكن هنالك أية قضبان ... اي سجن هو هذا ؟ ولماذا لا يحتاط صاحب الدكان خوفاً من هرب رعاياه وعصيانهم ؟ ام ان السجن ليس قفصاً فحسب بل هو أولاً رعايا اذلاء .. ورعاياه من الببغاوات والقطط والفئران والكلاب والحساسين والطواويس لا يستحقون عناء كبيراً لسجنهم والاتجار بهم ؟ ..

مددت رأسي داخل المخزن عبر النافذة ... كان الظلام دامساً ورائحة كريهة تفوح.. والصمت التام مخيماً على المكان .. تساءلت : هربوا جميعاً ؟ ام ماتوا جميعاً ؟ ام تراهم مثل بقية أهل الحي يقبعون في الظلام في مخابئهم مذعورين صامتين حائرين ، خائري القوى ؟؟ ... بعد قليل ألفتْ عيناي الظلمة ، ولم أعد أشمّ الرائحة الكريهة

كثيراً ... لاحظت ان سقف المخزن ليس مرتفعاً بقدر ما كنت اتصور ، وانني استطيع ان أدلي بجسدي من النافذة ثم اقفز على الأرض بسهولة ... ولماذا السقف المرتفع ، وهل تهم صاحب الدكان الشروط المعيشية الصحية الجيدة لحيواناته ، ام أن كل ما يعنيه هو ان يبقيهم على قيد الحياة كي يتابع إتجاره بهم ؟ ..

انه الليل ...

وانا قد قفزت إلى داخل الدكان ... قفزتي أثارت همهمات واصواتاً غريبة ... اذن لم يموتوا ولم يهربوا ، ولكنهم مثل بقية أهل الحي تماماً ... في حالة ذعر وخوف ... وها هم يحسون بوجود جسم غريب داخل المكان ، ويحاولون عبر قلقهم وخوفهم الغريزي تحديد كنهه .. هل هو حيوان من فصيلتهم (صديق) ام من فصيلة اخرى (عدو) ؟ وما نتيجة دخوله إلى سجنهم ؟ .. لعل كل حيوان منهم يفكر بي ، انا ذلك الكائن (الغريب) الذي دخل دكانهم ... لعل الببغاوات متضايقة الآن ، فقد حفظت ثرثرة صاحب الدكان عن (السيادة) ، اي عن (سيادته) هو عليها وهي الآن بحكم (ببغائية) ما حفظته تعلن بأن دخولي إلى الدكان تحد للسيادة (!) ... ولكن ، اية (سيادة) هذه ؟ اية سيادة لمن يسكن قفصه ، ويقضي وجوده سلعة تباع وتشرى لاصحاب النزوات والأثرياء من اي مكان جاءوا ؟ ... اية سيادة لمن حياته سجن بلا نهاية ؟ ...

وصحيح أن بعضها الذي يعرض في الواجهة الخارجية يعيش في ظروف نموذجية تلفت أنظار الزبائن ، وتجعل الحيوانات في المزارع الأخرى المجاورة تشعر بالغيرة من ترف تلك القاطنة في شروط عصرية نموذجية ، لكن الأكثرية الساحقة من مخلوقات بائع الحيوانات الاليفة تعيش هنا خلف جدار التنك المرتفع الذي لوّنه رجل الديكور ورسم عليه مناظر طبيعية بديعة لشاطىء ساحر تعلوه الغابات المزروعة بالأرز والقمم المتوجة بالثلوج ! ... اية (سيادة) هي هذه ؟! .. كانت الببغاوات أول من واجه دخولي بشكل عدائي . كانت اصواتها غاضبة ومتحدية في البداية ، ثم صارت خافتة ... صحيح انها بحكم طبيعتها الببغائية لا تملك إلا ان تكرر الأسطوانة التي حفّظها إياها سيدها ، لكنها أيضاً بحكم بؤسها وارهاقها لا تملك إلا أن تصمت أو على الأقل تكف عن تكرارها بحماس ... ببغاء واحد ظل يصيح : مرحبا يا ضيف . انا نحبك ... اشتريني (تماماً كما قد ينطق بها فرنسي سائح) ويقول بعدها على التوالي : اطلع يا غريب .. السيادة

اولاً ... وكان الببغاء يكرر العبارتين كما لو كا تا وجهين لعملة واحدة ...

ووسط هذا الليل الخطر المرعب وجدت صوت الببغاوات مضحكاً ... وانفجرت أضحك بصوت عال ، فأنا لست من (جماعة الزبائن) أصحاب الثراء ولا أجد سبباً يدعو لاعتباري (الغريب) غير المرغوب فيه ... أليس بؤسنا واحداً ؟ خوفنا واحداً ؟ قلقنا وحيرتنا ومخاوفنا وبالتالي مصيرنا واحداً ؟ ..

سكتت الببغاوات ... لم تبق غير همهمة جماعية كبقايا صوت مظاهرة مقهورة أمام هراوات رجال الشرطة ... مزيج عجيب من مواء وعواء و « هسيس » .. أجل لم تكن العصافير تغرد أو تزقزق بل كان صوتها أشبه بغمغمات محتضر .. كان الصوت رهيباً مخيفاً مليئاً بالهول ، بل كان كالصوت البعيد القادم من قبيلة من الجرحى والمحتضرين الذين ادمتهم الحرب وحرقت اطراف ثيابهم واهدابهم واقدامهم ...

وحينما عادت الانفجارات شعرت ببعض الراحة ... فصوت العذاب الحيواني أشد إيلاماً لقلبي حتى من صوت الرصاص المصهور في فوهات البنادق ...

هدأ الرصاص ... عادت الهمهمات .. وسمعت نفسي أقول لهم بصوت عال : شعبي الكريم ! ... (سمعت صوتي وخفت منه وخيل الي انني بدأت أصاب بمس من الجنون) ... ولكنني تابعت : يا شعبي الكريم ... بلاغ رقم واحد ... جئت احمل لكم الخلاص ... وردت علي الحيوانات بارتفاع همهمتها التي كانت تحمل كثيراً من الخوف .. صرخت بهم : صفقوا لي .. وانفجرت أبكي ... شعرت بانني ممثل صغير بائس مهزوم يمثل وحيداً على مسرح بائس مهزوم مثله ...

كانت عيناي قد ألفتا الظلام النسبي تماماً ... تذكرت انني هنا لأحضر لهم الطعام والماء ولأتفقد حالهم ، لا لأصاب بجنون العظمة وأنصّب نفسي أميرة على مملكة البائسين .. الأسياد لا ينقصونهم ولكن ينقصهم الماء .. والغذاء ... وكل شيء آخر ما عدا (الزعماء)..

فوجئت بالطعام في أقفاصهم ... وبالماء أيضاً ... لم يكن قد نقص ولا زاد ... كان في الأقفاص ما فيه الكفاية ليعيشوا أياماً ... ترى هل غامر صاحب الدكان وجاء لاطعامهم ؟ اشك في ذلك . لعل الشاب الصغير الذي قتله القناص هذا الصباح كان من (المتحمسين) لصاحب الدكان ومن اتباعه وقد غامر بحياته ليؤدي هذه الخدمة ! ... كم هو مفجع مصير اولئك الشبان الصغار الذين يتوهمون انهم يقومون بعمل (اخلاقي)

ويموتون وهم في حالة قناعة بأن لموتهم معنى ... والمعنى الوحيد لموتهم هو زيادة تسلط صاحب الدكان واستمرار تجارته ، وهم من بعض ضحاياها دون ان يدروا .. كم يفجعني مصير اولئك الصغار خلف متاريسهم اللذين اقنعهم أصحاب الدكاكين بالموت من اجل (مثل عليا) ليست أكثر من زبد لغوي يخفي خلفه مصالح أصحاب الدكاكين ، المتنافسة في حالة السلم ، ولكن المتضامنة المصالح في حالة الاضطراب والحرب ..

المهم ، لم يكن ينقص الطعام في الاقفاص كثيراً . كانت نوعيته طبعاً سيئة ، ولكن أحداً فيما يبدو لم يمت بعد (إلا إذا كان أتباع صاحب الدكان يتولون أمر نقل الجثث أولاً بأول ورميها في الشوارع وتحت الجسور) ... والماء أيضاً كان ملوثاً ، رغم الظلام شاهدت لونه الكالح وشممت رائحته المقرفة لكنه كان موجوداً على أية حال ..

ودوى انفجار ... وعلى ضوء التماع الصاروخ الذي أضاء كالبرق لوهلة ، شاهدت كل شيء في نظرة واحدة شاملة انطبعت في ذاكرتي كوشم من جمر .. وإلى الأبد ... شاهدت أن بعض الحيوانات جريح ... كأنها تقضي نصف وقتها في الذعر ، والنصف الآخر في الشجار فيما بينها ... هذا السجن المروع البؤس يشحنها بعدوانية تحتاج إلى تفريغ ... والتفريغ يحدث للأسف عن طريق الاقتتال فيما بينها بدلاً من الهجوم الموحد على صاحب الدكان ، سجانها ... وشاهدت أحد الطواويس فارشاً ذيله ، وخيل إلي أنه يتباهى على ما تبقى من حيوانات ، وان الكلاب الكبيرة (تتمرجل) على الكلاب الصغيرة ، والقط الكبير يفرض (الخوة) على القط الصغير ... خيل الي انهم مشغولون بسفاسف فروقهم البيولوجية دون ان يلحظوا انهم يشتركون في شيء واحد : هو انهم جميعاً عبيد وسجناء ... آه الحمقى ، ألا يرون حقيقة الأمر ؟ .. بلى .. ربما كانوا يرون ذلك ، فقد لاحظت في عيونهم جميعاً نظرة موحدة ... كل العيون .. العيون الحمر للأرانب ، والعيون البنية للكلاب والخضر للقطط ، والصفر للطيور ، كل العيون على اختلاف ألوانها كانت فيها نظرة واحدة . نظرة دامعة مليئة بالذل والانكسار والذعر ... ولمسة من الغضب القلق ...

أتجول بين مخلوقات دكان بائع الحيوانات الاليفة ، وضوء الشارع يرتجف مع كل انفجار ، والليل الحزين يسيل من أقفاص الحيوانات السجينة المكسورة النظرات ... أتجول بينها مثل ملك اسطوري مجنون في قرية خرافية جميع سكانها من الجرحى

والمشوهين والبؤساء ، وهو أشدّ الجميع بؤساً ...

أعاود مخاطبتهم : يا شعبي الكريم ... قررنا منحكم اثمن ما في الوجود ... الحرية ...

وكأن صوتي يقلقهم أكثر مما يرعبني (يرعبني ان أكون مشرفة حقاً على الجنون) ... وخلف كل جملة أصرخ بها ، تعلو همهماتهم الموحدة ... العواء المتعب للكلاب .. عواء أقرب إلى المواء .. ومواء القطط الشبيه بالأنين .. وصوت العصافير الذي لا يشبه الزقزقة ، بل هو أقرب إلى أصوات شخير شيوخ محتضرين .. وشهقات الأرانب ونعيب الفئران الأقرب إلى صوت البوم منه إلى صوت العصافير . وامتلأت ألماً لحال تلك المخلوقات السجينة البائسة (أم كنت ارى وجهي في مرآة ؟ أم كنت أرى حيّنا بأكمله ؟ مدينتنا ؟) ... وقررت : سوف أطلق سراحها ... سوف أمنحها الحرية والفرح .. وغداً حين يأتي صاحب الدكان الذي يعتاش من بيعها ، لن يجدها ... سأحررها من البؤس الذي تحياه ...

لحظات وأفتح أبواب الأقفاص كلها ... لحظات وأسمع خفق أجنحة العصافير وهي تطير عبر النافذة وفوق الأشجار إلى البحر الذي لا بد وأنها تفتقده في سجنها المعدني ، وتهرب من هذه المدينة المجنونة إلى الغابات ... لحظات وافتح باب سجن كلاب الصيد ، لتنطلق مجنونة تشم رائحة الزعتر البري والليل النقي هاربة من جحيم الاسر ... لحظات وتخرج القطط وهي تموء كما لو كانت تزغرد ، وقد تمشي على قائمتين بدلاً من أربع لشدة الفرح ... لحظات وتنطلق الفئران البيض وتتسلق الأغصان وتنام ملتفة بأوراق الأشجار ... لحظات ويخرج الطاووس ليفرد ذيله بأكمله دون ان يتقصف ريشه بين قضبان السجن ويترك المطر يغسل ألوان رياشه الصدئة والفجر يلمعها والريح تركض عبرها ، فيزهو وينتعش ويحيا ... وحتى السلاحف التي لا تستطيع تسلّق النافذة فسأحملها بيدي إلى النافذة ، وارقبها تخلع صدفتها وتركض بأسرع مما يركض الأرنب ... لحظات وتتحول كآبة هذا السجن إلى مهرجان حين تمسه يد الحرية ... ولكن بمن أبدأ او اي الأقفاص أفتح أولاً ؟ .. خشيت ان افتح قفص القطط قبل الفئران فتنتظر القطط الفئران عند النافذة وتلتهمها .. خشيت ان افتح قفص الكلاب قبل القطط ، فتطارد الكلاب القطط وتؤذيها ... وكان من المهم أيضاً اطلاق الطيور قبل الكلاب والقطط معاً لئلا تنشأ معركة جوية — أرضية بينها ..

قررت ان تتم عملية (تحرير) مخلوقات باتع الحيوانات الا'يفة على الوجه التالي : اطلاق سراح الطيور أولاً ثم الفئران . فالطواويس . فالقطط . فالكلاب . كان لا بد من (التخطيط المرحلي) للعملية ، وقد فوجئت بذلك ، والا لخططت له طوال النهار . يدي ترتعد وانا افتح اقفاص الطيور كلها من حساسين وبلابل وببغاوات . شيء رائع ان نصنع الحرية ... كان الباب صدئاً ، لكنه لم يكن محكم الاغلاق .. صرير حاد صدر عن مزلاجه ، وبدا لي ان الطيور اجفلت قليلاً كانما أخافها صوته ... فتحت الباب على مصراعيه ، وفوجئت بأنها لم تتجه اليه لتطير هاربة صوب الحرية والليل والرياح والسماوات ودروب المجرة ، وإنما سارت تلقائياً نحو المكان المعد لطعامها كما لو كانت عمياء او منومة مغناطيسياً .. لقد اعتادت ان يتم فتح باب السجن لمجرد اطعامها ، ولعلها تظن انه اعيد اغلاقه ... فتحت أبواب أقفاص الطيور ، وهالني ان عصفوراً منها لم يطر ... كأنها نسيت الحرية ... كأن خيوطاً لامرئية تربطها بجدران سجنها .. جلست ارقبها مذهولة . لم تعد المتفجرات ترعبني . لم تعد أصوات الرصاص تخيفني ... مشهد الطيور القابعة في سجنها رغم بابها المفتوح ملأني بذهول وخوف لم أعرف لهما مثيلا طوال حياتي ... دوماً تخيلت الطائر جائعاً للحرية ، يقضي لياليه وهو يضرب جدران القفص بجناحيه وبابه برأسه ... دوماً تخيلت انني ما أكاد افتح الباب للعصافير حتى تنطلق فوراً طائرة نحو شمس الحرية ... ولكن ، في هذا الليل الذليل الطويل ، تبدت لي صورة مروعة للطبيعة (الحيوانية) ... تقدمت منها ، وحملت في يدي بطائر ، واحسست بجسده ينبض داخل يدي دافئاً وربما خائفاً ، بل خيل إلى انني أحس بضربات قلبه ، حملته وقذفت به نحو النافذة ... فرد جناحيه قليلاً ، قليلاً جداً بما فيه الكفاية ليكون سقوطه على الأرض متوازناً وأقل إيلاماً .. واستوى واقفاً على قدميه وعاد فمشى باتجاه قفصه وطار بجناحين مضطربين ليستقر على مدخله ، ثم مشى إلى داخله واختبأ بين بقية زملائه السجناء . صعقني المشهد ... فانطلقت كالمجنونة افتح أبواب الأقفاص جميعاً ... واصرخ بها جميعاً .. فكانت تهرب من موقع الباب وتمعن هرباً إلى أبعد بقعة داخل السجن وبعضها يحتمي ببعض ... كأن الحرية غول قابع بانتظارها ... كأنها نسيت كل شيء عن الطبيعة والسماء والركض والتحليق والسباحة ، نسيت كل شيء عن الحرية والفرح وتحصيل رزقها ومتع الصيد في دروب الفصول الأربعة ، مكتفية بنصيب يقيم أودَها بينما هي

مختبئة داخل أوكارها مذعورة من الرصاص راضية بهذا السجن الخامل مسلمة أمرها إلى الأقدار .. وإلى سيدها صاحب الدكان .. ذكرتني بحال أهل حينا ، حيث يهدأ القتال في أوائل كل شهر ، فيذهب كل واحد لقبض راتبه او نصف راتبه أو ربعه كما يشاء له رب عمله ، ويعود بعدها راكضاً إلى بيته – القفص – حاملاً ما استطاع تخزينه من طعام ، قابعاً في عاصفة الريح والنار والجنون مكتفياً من حياته بأحط أنواع الوجـود البيولوجي ! ...

كانت أبواب سجون دكان بائع الحيوانات الاليفة كلها مفتوحة ، ولم يهرب أحد عبر النافذة ... بعض القطط مد برأسه من باب السجن دون ان يُخرِج جسده منها .. كلب خرج وتجول قليلاً في أرض الدكان – السجن – ثم عاد إلى القفص المعد له بالذات . لم يفكر حتى بالدخول إلى قفص آخر على الأقل ... شعرت بأن المشهد يثير جنوني ، فتركت الدكان وانطلقت هاربة .. تسلقت النافذة ، وخرجت منها كما دخلت ، وأعدت إطارها إلى مكانه ، ولم أحكم إقفالها بحيث تستطيع الحيوانات الخروج منها فيما لو حاولت او رغبت حقاً بذلك ... في الخارج كان الليل بانتظاري ، بارداً وكئيباً ، والرصاص لا يهدأ ...

ركضت إلى النخلة ، ودفنت وجهي في جذعها الرطب وفاحت في أنفي رائحة الأرض ... وبكيت طويلاً طويلاً وقد الصقت صدري بصدرها ... وخيل إلي انها لم تعد خشباً ، وان جذعها رق لي ، وهززت إلي بجذع النخلة ، وخيل إلي ان شيئاً رطباً نقياً يتساقط علي .. وشعرت ببعض السلام يغمر روحي الممزقة ..

* * *

كابوس ٦١

للمت نفسي عن جذع النخلة . عبرت الحديقة ركضاً وقد حنيت هامتي كالقرود : انها مشية البشر في زمن الحرب الأهلية ! .. وصلت إلى مدخل البيت .. سمعت صوت انسان يتنفس عند المدخل . كان الظلام دامساً . تحولت إلى اذن واحدة كبيرة متحفزة وأرهفت السمع ... شممت رائحة خاصة ، رائحة الخوف ، ولم أكن أدري هل تفوح مني أم من ذلك المجهول القابع في الظلمة ... تراه خائف كخوفي ؟ ام ينتظرني وفي يده سكين ؟ تراه الموت ؟ تراها رصاصة ؟ ترى هل يحس الموتى بالرصاصة التي تقتلهم

كما لو كانت شخصاً له قدمان ينتظرهم في الظلام ؟ إن أحداً لم يعد من الموت ليروي لنا بالضبط ماذا يحدث في تلك اللحظة الحادة الرفيعة الفاصلة بين الموت والحياة . تراني اواجهها ؟ ... وكانت صرخة قد تجمعت في صدري وبدأت تأخذ طريقها إلى حنجرتي .. وقبل ان اصرخ صرخ هو ... وعرفت صوته .. انه الخادم نصف العجوز للعم فؤاد ... صرخت معه في آن واحد تقريباً : لقد ارعبتني ... وقال ، وكاد يغمى عليه : لقد ارعبتني ! ... وأضيء النور . وعلى العتبة ظهر العم فؤاد : اين كنت ؟ لقد قلقنا عليك ...

قلت له محاولة تجنب اي حوار : لقد عدت وأنا بخير ...

كان من الواضح أنهم بحثوا عني طويلاً وقلقوا فعلاً وكانوا متلهفين لتلاوة التفاصيل عليّ ، كموضوع للحوار في بحر الضجر والخوف الذي نعوم فيه . كان جوابي حاسماً وقاطعاً ، كجواب عائد من جنازة دفن فيها أحب الناس اليه .

كنت أعرف انه لا مفر لي من النوم في دارهم .. فالطابق الأرضي أكثر أماناً من بيتي بالطابق الثالث في ليل الصواريخ .. اتجهت نحو الغرفة التي نمت فيها بالليلة السابقة وانا أقول بصعوبة : تصبحون على خير ... سألني أمين بالفرنسية : ألا تأكلين شيئاً معنا ؟ .. لم أجب ! ...

* * *

كابوس ٦٢

الغربة قدري ...

رائحة الغرف غير المألوفة ... الأثاث الكئيب الذي أحسه يرفضني .. لا أدري لماذا أشعر بالانقباض الشديد وسط هذا الديكور الجنائزي ، ففي هذه الغرفة ماتت زوجة صاحب الدار بين يدي .

(كنت أهبط الدرج ذاهبة للقاء يوسف . فتح أمين الباب وكان يرتجف والحيرة تقطر من وجهه ... بصوت باك قال كلمة واحدة : أمي ...

دخلت اليهم ... كان العم فؤاد يحتضنها ويناديها : ليلى .. ماذا بك ..

تقدمت منها .. كانت بلا حراك ويدها نصف باردة وقد تسللت زرقة خفيفة الى أظافرها ... وفي عينيها كانت هناك نظرة لن أنساها في حياتي ، كان هنالك شعاع الحسر

ولم يعد مصوباً الى الخارج ، الى عالمنا ، بل كأنه عكس اتجاهه الى الداخل أو الى عالم نجهله . نظرة عينيها جعلتني أتأكد في لمحة كالبرق : انها ميتة ...

لم أجرؤ على اعلان ذلك . ربما أيضاً كانوا يعرفون ذلك ولا يواجهونه . قلت لهم : هل اتصلتم بطبيب ؟ بدوا وكأنهم يسمعون عبارة « طبيب » للمرة الأولى في حياتهم . كانوا يرفضون تصديق أن حالتها تستدعي حتى التفكير بجلب طبيب صرخت بأمين : اتصل بالاسعاف .

نهض العم فؤاد وتركها بين ذراعي جثة هامدة ... وغمرني الذعر كما لو أنهم دفنوني حية تحت جسدها الميت ، لكنني بقيت بلا حراك حتى جاء من رفعها عني ...

ذلك اليوم ، ركضت الى بيت يوسف متأخرة عن موعدي . بدا لي غاضباً لكنني لم أفسّر . لم أعتذر لم أبرّر . أغلقت باب الدار خلفي وباشرت خلع ثيابي فوراً ... كانت أول مرة أتعرى من ثيابي كلها أمامه ... كومتها على الأرض ، وتمددت على البلاط في الدهليز ورأسي متجه صوب باب الخروج وناديته : تعال !) ... ولكن ، لماذا أتهم ذكرى هذه المرأة التعسة بما أحسه الآن من خوف ؟ .. لماذا اتهم الماضي ؟ ام تراني هاربة من مواجهة عذابات الحاضر المروع إلى ماض أقل فظاعة ؟ ..

لماذا لا اعترف انني وحيدة وخائفة في هذا الليل الجهنمي الذي يحيق بي من كل جانب ؟ لماذا لا اعترف بانني يائسة لموت يوسف ، لا أجد لغيابه تعويضاً ولا عزاء ؟ وقلقة أيضاً لسجن أخي ، غاضبة منه وآسفة لأجله في آن معاً ... لماذا لا اعترف انني أحس بالفجيعة بينما الحرب الأهلية تعري أمام عيني اكذوبة الاستقرار التي كدت اسقط في فخها ...

لقد كنت دوماً وحيدة ، مشردة بين القارات والمدن والشوارع والرفاق ، مما سبب شبه قطيعة بيني وبين اخوالي السوريين ... لقد كنت دوماً غجرية المدن ، ما أكاد استقر في مدينة أوروبية حتى أرحل إلى أخرى بعد ان أخلف ورائي بيتاً ومهنة ومكتبة وحلقة صغيرة من الأحباب والأعداء .. لقد كنت دوماً راحلة بين الدروب ، شعري وسادتي ، وجسدي حقيبتي ، ولقائي بيوسف وحده جعلني أحس أحياناً بالحاجة إلى كهف أضع فيه طفلي منه بعد الحمل ... لكنني لم أحمل ولم أضع ومضى يوسف . ورغم كل شيء حاولت ان أتابع حياتي إنطلاقاً من الاستقرار الداخلي الذي خلفته علاقتنا في

نفسي ، والتزامي بأرضي الذي جاء كردة فعل واعية رافضة لإرتباط مزيف باوروبا ... أية مهزلة ! انني يوم انتقلت من بيت اللامعقول إلى بيت الاستقرار ، جاءت الحرب الأهلية لتكشف لي انني بنيت بيتي في مركز الزلزال ... أتراها كانت صدفة أنني يوم قررت أن أنظم مكتبتي ، واكتب لها ارشيفاً والتصق بها حتى أموت ، اندلعت الحرب في بيتي وجاءت أول رصاصة لتستقر في رف مكتبتي بالذات ؟ أتراها صدفة ، أم ان القدر أراد ان يذكرني بالدرس الذي كدت أنساه ... بأن الحقيقة الانسانية الأولى هي التشرد ، وان الاستقرار ليس أكثر من محطات أنس عابرة . وان الاستقرار مستحيل في وطن غير مستقر ! ..

آه يا يوسف ... يا عيناك ، يا صدراك يا صوتك يا أنت ... تقدم ... ها أنا أفتح ذراعي لك في ليل الصواريخ والمتفجرات .. تقدم فالموتى لا يخشون رصاصة اضافية .. تعال اليّ واتحد بي ، ها أنا ممددة على البلاط في مملكة الغربة ، وقد وجهت رأسي صوب « باب الخروج » من هذا العالم ... صوب الموت ، قبلة المشردين ... فتعال إلى غجريتك يا يوسف ...

* * *

كابوس ٦٣

نعم . يألف الانسان صوت الرصاص بمرور الزمن ، ويصير قادراً على النوم رغم طلقاته ...

ورغم المعركة التي كانت تدور بالرشاشات في « شارع الحوراني » المجاور لوسادتي ، وجدتني انزلق إلى بئر النوم والكوابيس ، بدلاً من التحليق في سحب الاحلام ...

منذ الأيام الأولى لسجني وسط هذه المعركة المجنونة وأنا لم أذق طعم النوم .. وكنت أتساءل : ترى هل ستأتي لحظة أستطيع النوم فيها رغم الرصاص ؟ ..

وقد أتت اللحظة .. وجسدي الذي اتوهمه هشاً ، يحوي طاقات سرية مذهلة على التكيف . ولكن الألفة مع الرصاص تشبه ألفة المريض مع سرطانه ... ونوم ليل الرصاص يشبه نوم الجريح المتوجع الذي أتخم بالمورفين ...

انه ليل الكوابيس ...

لا أحس بسرير تحتي ... اشعر بانني ممددة في الفضاء ، تحيط بي رياح الليل والمجهول

من كل جانب ، تحملني وتطير بي عبر غابات أشجارها أجساد بشرية ممزقة تنزف وتصرخ ، تطير بي فوق سهوب محروقة يركض أطفالها كالقطط الصغيرة المفترسة المكشرة عن انياب دقيقة وحادة ، تطير بي فوق بحار تغلي مياهها السود بفقاعات الكبريت والملح والزرنيخ ، وفي جزرها القليلة تسكن قبائل مصابة بالجذام ... وانا أسبح في ليل الكوابيس اللامتناهي ، ويمد المجذومون أصابعهم المتآكلة فيمسكون بشعري ، ويشدونني إلى الأرض ... ويبدأون بالتهامي ... واصرخ .. ثم اتابع طيراني ، عائمة في الفراغ فوق فراش الليل والمجهول والكوابيس .

* * *

كابوس ٦٤

القناص يجلس فوق سطح العمارة المواجهة للبحر ، وله عين واحدة كبيرة في منتصف وجهه ...

منذ أشهر وهو لا يبدل جلسته ، ويؤدي مهمته التي لم يعد يذكر كيف ولماذا بدأ يمارسها ... كل ما يعرفه الآن هو أن عليه ان يقتل أكبر عدد ممكن من الناس ...

كان في البداية يتوهم ان مهمته ستكون أكثر صعوبة ، وأنه سيضطر إلى الركض كثيراً حول أطراف سطح العمارة كي يستطيع صيد الناس .. كان يظن صيد البشر أكثر صعوبة من صيد العصافير . لكن ما أدهشه هو ان الناس كانوا يأتونه طائعين ... حينما صارت عمارته مركزاً لإطلاق النار ، ظن أن الناس سوف يتجنبونه ، وسيكون عليه ان ينتقل إلى عمارة أخرى . لكن المذهل ان الناس كانوا يقبلون إقبالاً عظيماً على الوقوف داخل مرماه طائعين ... كانوا يأتونه كل يوم أسرة بعد أخرى ... تأتيه الأسرة بكل أفرادها الشيوخ والأطفال ، وهو يطلق الرصاص عليهم . وحين يصابون بالرصاص ، يلوحون له شاكرين ثم يسيرون خطوات قليلة نحو البحر حيث يسقطون .. بعدها بلحظات تأتي موجة تكنسهم عن الشاطىء وتفرغ المكان للأسرة اللاحقة بهم .. وهكذا ...

انه يشعر بأن أهل بيروت يمارسون انتحاراً جماعياً ارادياً ما داموا يأتونه طائعين هكذا ... لقد حرموه لذة الصيد ، وحولوه من قناص مزاجي إلى جلاد مثقل بالعمل ... كان يشتهي لذة مطاردة الرجل ، وتخويفه ، وإطلاق الرصاص أمام قدميه أولاً ، ثم جرحه في يده كي يتابع ركضه ، ثم اطلاق الرصاص على بطنه ليموت ميتة مؤلمة طويلة

الاحتضار ... ولكن أهل بيروت يفاجئونه بشهيتهم للموت ، وبانتحارهم الجماعي المثير ...

انهم يأتونه حاملين مرضاهم على النقالات المصنوعة من الخرق الرثة ، وعلى العكازات ، وعلى ظهورهم ، ويطرحونهم أمامه كما لو كان يملك لمسة الشفاء ... ويحملون أطفالهم الرضّع على ظهورهم ويجيئون ... ويقفون في مرمى محدد بحيث يسهلون مهمته إلى أقصى الحدود ... لا يتحركون .. وكل ما عليه هو أن يطلق النار ...

بل انهم رسموا ديكوراً لمكان اطلاق النار شبيهاً بتلك الديكورات الكرتونية التي يستعملها المصورون في مدن الملاهي والألعاب ... وقد ظهرت في الكرتون الملون صورة لنخلة ولأرزة مرسومتين برداءة .. كانوا يقفون أمامه كما يقفون أمام المصور لالتقاط صورة ، صورتهم الأخيرة . ولم يكونوا ليبتسموا أو يبكوا .. كانت ملامحهم جامدة وغامضة كملامح الذين يقفون أمام الكاميرا لالتقاط صورتهم الأمامية والجانبية قبل الدخول إلى السجن ...

كانوا يمارسون انتحاراً جماعياً مذهلاً ... والقناص غاضب يشعر بأنه مغبون في الصفقة . إنه الآن مجرد موظف محترف ، ولم يعد يستمتع بعمله بعد ان حرم من نشوة القنص .. بل انه ذات يوم ، ضجر من تلك العائلات المنهمرة عليه للانتحار ، وسئم من قتل هدف لا يتحرك ولا يهرب ولا يشكو ، فحول بندقيته إلى السماء ليطارد طيراً ابيض كان يحلق بنشوة صوب البحر الأزرق الشاسع ... وأطلق الرصاص على الطائر فأخطأه ... كانت أول مرة في حياته يخطىء هدفاً حياً .. لكنه لاحظ ان يده صارت ترتجف وان أصابعه فقدت مرونتها ومهارتها ، وان عينه الواحدة الكبيرة صارت ترمش وهي تحدق من خلال عدسة التصويب ... كانت نشوة الصيد حياته ، وقد خسرها .. لقد قتله ضحاياه ... قتلوه ولم يقتلهم .. كانوا ينتحرون وكأنه يسدي لهم خدمة ! ...

ها هي أسرة جديدة تصل . تصطف أمامه . يطلق الرصاص . كل منهم يتلقى رصاصته في جبينه ثم يمشي صوب البحر ليموت بعد ان ينحني شكراً له ... ولكن شيئاً غريباً حدث ... لقد انقضت ساعات ولم يأت أحد ليموت ... لم يعد يسمع صوتاً .. لقد توقف كل شيء . مات كل شيء حتى الريح .. ماتت الأصوات . وجثث الرياح ممددة على الأرصفة .. جثة السماء ممددة على الأفق وقد سرت فيها زرقة رمادية داكنة ...

جثث الألوان مكومة تحت الأشجار كأوراق الخريف .. لا صوت .. لا حركة .. لا طائر يحلق ، ولا طائرة تعبر السماء .. جثة الرحيل منسية ، والزوارق على الشاطىء مقلوبة وباطنها نحو الأرض وقعرها الذي تغمره المياه عادة متجه نحو الأعلى كرجل ممدد على بطنه ، ووجهه إلى الأرض وقد فارق الحياة ..

ها هو رجل قادم من آخر الزقاق ... انه يسير بحذر . انه يبدو مذعوراً .. خائفاً قلقاً كطريدة ... لعله آخر رجل في المدينة ، ومن الأفضل أن يُبقي عليه ليتحدثا معاً ولا يبقى وحيداً . لكن الدم تدفق حاراً في جسد القناص ... نسي خوفه ... عاوده عطشه إلى القنص والدم .. حمل بندقيته وجمع كل ما في جسده من طاقة وشهية للافتراس وأطلق النار ... كانت الطلقة محكمة ... أصابت الأرض على بعد خطوة من الرجل ... كان ذلك بالضبط ما يريده ... كان يريد تخويفه وقد نجح .. طلقة أخرى محكمة اصابت الرجل في يده .. وبدأ الدم ينزف منها ، وفرح القناص ولم يلحظ أن الدم كان ينزف من يده هو أيضاً وفي الموضع نفسه ... طلقة ثالثة محكمة في الفخذ .. سقط الرجل أرضاً وبدأ ينزف ولم يلحظ القناص أن الدم كان ينزف من فخذه هو أيضاً ... طلقة رابعة محكمة ، في البطن ... لم يعد الرجل يزحف وإنما استسلم للإحتضار البطيء ، ولم يلحظ القناص أنه كان قد بدأ ينزف من بطنه أيضاً ... وفي الموضع نفسه ... لكنه يشعر بتعب شديد ، فيقرر الاجهاز على ضحيته برصاصة الرحمة ، لكنه يشعر برغبة في رؤية وجهه يركض إليه ، وحين يقلبه على ظهره يرى ان له وجهه هو .. كما لو كان يحدق في مرآة ! ... بعدها فقط أحس بالألم المروع في أحشائه ، وعرف أنه سيموت ميتة بطيئة مؤلمة طويلة ... ولم يكن بوسعه ان يطلق النار على رأسه ليختصر عذابه ، فقد كانت بندقيته طويلة ... أطول من ان يلصقها برأسه ثم تصل أصبعه إلى زنادها .

* * *

كابوس ٦٥

نعم ، يألف الانسان صوت الرصاص بمرور الزمن ، ويصير قادراً على النوم الكابوسي رغم طلقاته .. أما الصواريخ فلا ... أما القنابل فلا .. خصوصاً اذا كانت تسقط على بعد أمتار منك ...

كان الدوي الذي ايقظني مروعاً ... قفزت عن السرير ، وركضت إلى النافذة ...

كان من المفروض أن أركض إلى ما تحت السرير ، ولكن وجدتني أمام النافذة ، كأن الحس بالفضول يعادل الحس بالخطر ان لم يكن يفوقه ..

كانت النار تندلع في فندق « الهوليداي‌إن » المقابل ... والانفجارات تتوالى ورقعة النار والدخان تتسع .. والفجر الرمادي الشاحب بدأ يتوغل في المرئيات أمامي ، وخلف النافذة في الحديقة كانت شجيرة الياسمين ما تزال مزدهرة ، وأزهارها البيض تبدو كالنقاط المضيئة وسط هذا العالم الرمادي القاحل ...

شعرت بالحقد على الفندق ، وعليه (شخصياً) كبناء ... قبل ان يشيدوه ، كنت استطيع ان أرى البحر ، والمراكب البيض ، ثم فجأة صبوه أمام عيني مثل جبل من الاسمنت والحديد ... ومن يومها (ازدهر) الحي ، بمعنى ان الأسعار ارتفعت وحركة السير تضاعفت ولم أعد أجد مكاناً أوقف فيه سيارتي ظهراً حين أعود من عملي مرهقة كعجينة تحت أصابع فلاحة .. وها هو اليوم مركز للدخان والنار ...

كان هنالك صوت خافت في داخلي يدافع عن المبنى ، ويقول لي ان عشرات الأسر ترتزق منه ، وانه لا يحق لي ان أحقد على مبنى لمجرد انه يحجب عني الشمس والبحر ، ولمجرد انه يقصف ويسبب لي الرعب .. لكنني في تلك الساعة من الفجر المبكر ، والخوف يقرض أطراف عظامي ، لم أكن على استعداد للمحاكمات العقلية الطويلة .. وكانت هنالك مشكلات عملية أخرى تواجهني ، ابرزها ان الخبز يكاد ينفد تماماً لدينا ، وانني عاجزة عن أكل ولو قطعة لحم واحدة لكثرة ما شاهدت من الجثث وصورها وحكاياها — على أية حال نفد اللحم أيضاً — وصرت شبه قانعة بأن كل ما نأكله هذه الأيام هو لحم بشري ! . وقررت الصعود إلى بيتي في الطابق الثالث وتفقد أحواله (العسكرية) ، وتفقد خطوطه (التموينية) أيضاً ...

توقف القصف وساد من جديد ذلك السكون المتوتر ... سكون ساحات الحرب الذي يختلف عن اي سكون آخر .. انك تستطيع الانصات اليه ، واذا استمعت جيداً إلى صوت السكون فستسمع أشياء كثيرة ... سمعت همهمات مخلوقات دكان الحيوانات الاليفة ... اذن لم تهرب بعد . ترى هل هرب بقية أهل الحي . كانت النوافذ كلها موصدة كنوافذي ، وعلى إحدى الشرفات ثياب طفل ما تزال منشورة على الحبل منذ تحول إلى جبهة حرب ، ولم تجرؤ أم الطفل على جمعها .. ام تراهم غادروا المنزل ؟ ...